فواز الشروقي

ثم حلقت لحيتي

تجربة اغترابي في الجماعات الإسلامية



.. ثمّ حلقتُ لحيتي

تجربة اغترابي في الجماعات الإسلامية

فواز الشروقي

✵ اسم الكتاب: ثم حلقت لحيتي:
تجربة اغترابي في الجماعات الإسلامية
✵ تأليف: فواز الشروقي
✵ الطبعة الأولى: ٢٠٠٩
✵ موافقة وزارة الإعلام رقم ١٠١١٤٥
✵ تصميم الغلاف: عمران العطار
✵ الناشر: دار بترا للنشر والتوزيع
www.darpetra.com
سوريا. دمشق
هاتف: ٠٠٩٦٣١١٦٦١٦٩٤٧
جوال: ٠٠٩٦٣٩٤٤٥٠٧١٠٦
ص. ب ١٠٢٥٠
darpetra@gmail.com
رابطة العقلانيين العرب
arabrationalists@yahoo.fr
✵ التوزيع: دار بترا للنشر والتوزيع

المحتويات

مقدمة

لم أكتب هذا الكتاب بقصد تدوين سيرتي الذاتية، فما أنا بالشخص المشهور الذي يتهافت عليه القرّاء لمعرفة تفاصيل حياته ويستميتون للاطلاع على مراحل نشأته. كما لم أكتب هذا الكتاب بقصد التشهير بالجماعات الإسلامية في البحرين، فأنا – رغم اختلافي معها – أدين لها في تكويني الثقافي.

إنّ هذا الكتاب هو محاولة منّي للإعلان عمّا يختلج في نفس كلّ عضو في الجماعات الإسلامية حينما يتيح لعقله أن يفكّر ويقدّر ويراجع نفسه ويعيد حساباته، عبر سردي لثماني عشرة سنة قضيتها في رحاب الجماعات الإسلامية أو متصّلاً بها، مركّزاً على حالة الاغتراب التي عشتها والتي يعيشها أعضاء الجماعات، وتؤدّي بهم إلى أن يكونوا حجر عثرة في طريق التقدّم بدل أن يكونوا هم قادة الركب وقائدي المجتمع إلى النهضة والحضارة.

وأحسَب أن الكتاب يكتسب أهمّيته من أنّه يصف حالة

الاغتراب التي تعيشها الجماعات الإسلامية ويبحث عن أسبابها، انطلاقاً من تجربة شخصية عاشها الكاتب عبر اتصاله بثلاث جماعات كبرى، فالكتاب لا يحمل مجرّد انطباعات لمتابع لأنشطة الجماعات وبرامجها، وإنما هو خلاصة تجربة لعضو مثابر بها وصل إلى مرحلة المشيخة مرات كثيرة، ودرس العلوم الشرعية ومارس الدعوة بها وأشرف على مراكز تحفيظ القرآن الكريم، وأشرف كذلك على الصفحة الإسلامية لمدّة سبع سنوات كاملة.

وقد جاء تخصيصي كتابي هذا لعرض تجربتي الشخصية في الجماعات الإسلامية لا لأحشد الناس إلى محاربتها، ولكن من أجل أن تسعى هذه الجماعات إلى تجاوز حالة الاغتراب التي تعيشها، لكي تصبح مؤسساتها مؤسسات فاعلة مساهمة في نهضة المجتمع ودافعة له في اتجاه التقدّم.

فأنا أعرف حقّ المعرفة القاعدة الجماهيرية التي تمتلكها هذه الجماعات في البحرين وفي سواها من دول المنطقة، وأتفهّم التعاطف الذي تبديه الشريحة الأوسع من مجتمع البحرين المحافظ بطبعه والذي يدين بدين الإسلام؛ لذا فإنّني أزعم أنّ الحلّ لا يكمن في إلغاء هذه

الجماعات وفي السعي إلى محاربتها، وإنما في إرشادها إلى الجادّة الصحيحة، حتى تصبح بعد ذلك وسيلة تقدّم بدل أن تكون وسيلة تأخّر.

ولكم تمنيت – وأنا أكتب هذا الكتاب وأعرض تفاصيل تجربتي – أن يقع الكتاب في يد كلّ منضم إلى الجماعات الإسلامية، وأن يقتنع بالأفكار المطروحة فيه، وأن ينشرها وسط جماعته، حتى تتحقّق أمنيتي في أن أرى هذه الجماعات تفتح نوافذها للنور، وتُشرع أبوابها للهواء الطلق.

فواز الشروقي

حيان الخياط & ليلى عرفان

أول اتصال لي مع الجماعات الاسلامية

نشأت وسط أسرة محافظة، ولكنها ليست متدينة. أبي كان يؤدّي الفروض على عجل، وأمي رغم لبسها الحجاب ثم النقاب بعد ذلك لم تكن متديّنة مثلما كانت بعد بلوغي الخامسة عشرة من عمري.

كانت علاقتي بالمسجد علاقة جار بجاره. حين تمّ افتتاح جامع عمر بن الخطاب بمنطقة عراد في العام ١٩٨٢م كان عمري وقتها سبع سنوات، ذهبت للجامع مع أصدقائي لا للصلاة وإنما لاستكشاف هذا البناء الضخم. وبعده بثلاثة أعوام في العام ١٩٨٥م تمّ افتتاح مسجد قريب من بيتنا وهو مسجد أسامة بن زيد، وقد زرته لأرى هذا الجار الجديد، ولكنّ المصلّين لم يحترموا حقّ الجيرة، وطردوني وأصحابي بسبب ما أحدثه أصحابي يومها من فوضى.

وفي العام ١٩٨٦م كنت على موعد مع أوّل علاقة بجماعة إسلامية في البحرين، فأثناء ذهابي للصلاة في مسجد أسامة بن زيد برفقة ابن خالتي وأحد الجيران، جاءنا رجل

ملتح بغاية التأدّب، ودعانا بلطف إلى الاعتكاف في المسجد والاستماع إلى الدروس التي تلقى هناك.

وفي اليوم التالي، ذهبنا صباحاً إلى المسجد، والتقى بنا أحد الملتحين، وأجلسنا نحن الثلاثة، وقد كنا بين العاشرة والحادية عشرة من العمر. لم يكن لدى صاحب الدرس أوراق أو سبورة وأقلام، وإنما كان لديه حصى. وبدأ بالحصى درسه، حيث كان حظّي أن أتلقى أول درس ديني لي عن الاستنجاء بالحصى. وما زلت أذكر ابن خالتي وهو غارق في الضحك حينما يقوم صاحب الدرس بوضع الحصى حول إصبعه ليمثّل لنا طريقة الاستنجاء من البول.

ثم دعانا إلى «الخروج» مَغرباً، ولم نكن نعرف ما معنى الخروج حتى انتهت صلاة المغرب والصلوات الكثيرة التي تلته، وخرجنا جماعة واحدة، مكوّنة من مجموعة من الملتحين الضخام وثلاثة من الصغار، كنت أنا أحدهم، وأخذ كبيرهم يطرق باب كلّ بيت من بيوت الجيران، ويحادث كلّ ربّ منزل، ويدعوه لحضور درس بعد صلاة العشاء. وقد كان بعضهم يستجيبون، ربما لرغبتهم في الحضور، أو لرغبتهم في إنهاء الحديث بسرعة ليكملوا مشاهدة المسلسل بالتلفزيون، أما الباقي فإنهم يعلنون صراحة عن عدم رغبتهم في الحضور، وينتقدون لبسنا وأشكالنا.

أذكر أننا في إحدى الجولات صادفنا تجمّعاً لجاراتنا خارج البيت (المنظر لم يعد مألوفاً كثيراً هذه الأيام، على الأقلّ في منطقتنا)، فعلّقت جارتنا سليطة اللسان على الرجال الضخام ذوي الثياب القصيرة: «والله خوش موديل، بس يبيله جيبون من تحت!». وقد أمرنا أمير هذه المجموعة بعدم الردّ عليهن، مبيناً لنا أنّ الرسول **صلى الله عليه وسلّم** قد صادف الكثير من الأذى وهو يدعو الناس إلى الإسلام.

الدروس التي كانت الجماعة تدعو الناس إلى الاستماع إليها محدودة المحاور، تتلخص في الدعوة إلى أداء العبادات والانضمام إلى هذه الجماعة لتبليغ الدعوة إلى بقية الناس، وأنّ العاصي سيلقي اللوم علينا عند الله يوم القيامة إذا لم نبلغه الدعوة ومات ولم يلتزم بالدين.

ولقد حضرت حوالي عشرين درساً من دروس هذه الجماعة، كانوا في جميع هذه الدروس يذكرون قصة واحدة، وهي أنّ إحدى الجماعات خرجت لتبلغ دعوة الله إلى الناس، ووصلوا إلى بيت مكتوب على بابه «احذر، كلب شرس»، ولكن عندما دخل أمير الجماعة إلى البيت تحوّل ذلك الكلب الشرس إلى حمل وديع، وكأنّ الكلب مذعن لدعوة الله راغب في أن تصل إلى أصحاب هذا البيت.

كما أذكر أنّ هذه الجماعة كانت تقوم بكثير من الأسفار إلى أمريكا وأوروبا، وكان أحدهم يروي أنّه ذهب إلى أمريكا لتبليغ دعوة الله في أحد المجمعات التجارية الضخمة، ولمّا حضر وقت الصلاة، وقف هذا الرجل على طاولة وشرع يؤذن بأعلى صوته، ثم أقام الصلاة، وقام بأداء الصلاة هو ومن معه، وكان ينقل لنا مدى تأثر مرتادي المجمع بالصلاة، ولم يفسّر دهشتهم من هذا الموقف سوى أنّه خشوع لآيات الله واستجابة فطرية لكلمات التوحيد!

من خلال هذه الجماعة تعرّفت على عدد من صغار الملتزمين الذين يكبرونني بأعوام قليلة، فقد كانوا هم في المرحلة الإعدادية وكنت أنا في المرحلة الابتدائية، ووجدت مدى حرصهم على متابعة دروس هذه الجماعة والخروج معهم في جولاتهم على البيوت، بل إنّ هؤلاء الصغار صاروا يقومون بحملات دعوة على غرار الكبار، وصاروا يقيمون دروساً في المسجد لنا، ولقد تأثرت غاية التأثّر بهم.

وكان من مظاهر التأثّر أنني صرت لا أفوّت فرضاً في المسجد، وصار القرآن رفيقاً لي، وقمت بتقصير ثيابي، والتزمت بارتداء الغترة المسدل طرفاها على صدري بدون

عقال؛ وقد كنت أسأل الله أن يمنّ عليّ بكرمه وينبت لحيتي بأسرع وقت حتى يكتمل هذا الشكل الجديد الذي أعجبني.

كنا نجلس يومياً مع شيخي الصغير (شيخ الإعدادية) ويحدثنا عن الحلال القليل والحرام الكثير، وعن الخطط التي يجب أن نقوم بها للقضاء على المنكرات داخل البيت أولاً. وبدأنا طبعاً بأشرطة الأغاني.

ذات مساء اغتنمت سانحة خروج أهل بيتي لزيارة الأقارب في قرية قلالي، فتخلّصت من مجموعة من أشرطة الأغاني. واعتبر شيخي الصغير ما حققته نصراً مبيناً، ودعاني إلى بذل المزيد من الجهد لتخليص بيتنا من باقي المنكرات.

وكنت في ذهابي ورجوعي من المسجد أسلك الطرق غير المسفلتة، وكنت أتحمّل ظلام هذه الطرقات لرغبتي في السير على الرمل والحصى مثلما كان يسير الصحابة رضوان الله عليهم. ولكم كنت أحلم أن أقتني خُفّاً مثل الخفّ الذي كان يسير عليه الأولون. ولكم كنا نسير مع شيخنا ونتحدّث باللغة العربية الفصحى، متحسّرين على عدم تحدّثنا مع أصحابنا في المدرسة وأسرتنا في البيت بلغة أهل الجنّة.

كانت رغبتي كبيرة في الانفصال عن العصر الذي

أعيش فيه، والالتصاق أكثر بذلك العصر النوراني، عصر المعجزات والأولياء والصالحين، عصر أولئك القوم الذين لا يخطئون، والذين حتى إن ماتوا فاحت أجسادهم بالمسك والعنبر. أذكر أنّ مؤذن المسجد تعارك معي لأنني كنت في كلّ مرة أذكر له أنّه يجب أن يؤذن من منارة المسجد باستخدام حنجرته مثلما كان يفعل بلال في فيلم الرسالة، بدلاً من استخدام مكبرات الصوت الكهربائية. وكنت أحلم دائماً بمسجد أرضيته من الرمل والحصباء، وأن تتورّم جبهتي بفعل السجود وتظهر بذلك زبيبة الصلاة.

موعد أول مع الخرافة

بدأتْ منذ ذلك الحين علاقتي بالخرافة، فقد حدّثني شيوخ هذه الجماعة أنّ الله يبعث الجنّ الصالحين ليوقظوا عباده المخلصين لصلاة الفجر، بعضهم يطرقون الباب ويهربون، وبعضهم ينادون على النائمين من خلف الباب، وبعضهم يبعثون النداء داخل البيت. وكنت أحلم أن أصلّي صلاة الفجر بالمسجد، إلا أنّ خوف أمي من خروجي في الظلام في تلك السنّ المبكّرة حال دون ذلك.

توفيت جدّتي وأنا في الحادية عشرة من عمري، وبسبب انشغال أمي بالعزاء اضطررنا للمبيت في بيت جدّي بقرية قلالي، فوجدت الفرصة سانحة لتحقيق حلمي بأداء صلاة الفجر بالمسجد، خصوصاً أنّ جدّي كان مؤذناً بمسجد «بو عيسى». فرجوته قبل أن أنام أن يوقظني حتى أخرج معه، فرحّب بذلك مدارياً تعجبه من إلحاحي على ذلك. كان نومي ليلتها متقطعاً، وحين قام جدّي من نومه وذهب إلى الحمام للاستعداد للصلاة كنت مستيقظاً، إلا

أنّ سنة من النوم غلبتني، فسمعت أحداً يقول لي: «قم.. قم.. قم»، فنهضت وإذا بجدّي خارجاً لتوّه من الحمام، فنهضت واستعديت للخروج، وخرجت بصحبته متخطين «بلاليع» قلالي والظلام وأنا منتشٍ بأمرين: تحقيق حلمي بأداء صلاة الفجر بالمسجد، واستيقاظي على صوت الجنّ الصالحين

نسيت جدّتي ووفاة جدتي، ورحت حاملاً خبر استيقاظي على صوت الجنّي الصالح إلى مشايخي، فهنؤوني على الاصطفاء، وتنادوا للاستماع إلى تفاصيل صوت الجنّي وتوقيته واختياره لطفل في قرية قلالي ليحقق حلم حياته. وظلت هذه الواقعة مصدر فخر واعتزاز لي سنوات طويلة.

كان الحديث عن عالَم الغيب وعالم الجنّ والشياطين يستحوذ على اهتمامنا، ويحتلّ مساحة كبيرة من الدروس التي تقام لنا. وقد كنت مشدوهاً بهذه الأحاديث، فأنْ تكتشف فجأة بعد أحد عشر عاماً من الحياة على هذه البسيطة أنّ هناك عوالم تروح وتغدو وتشعر وتتألم وتؤذي وتساعد، فإنه أمر يدعو إلى التبصّر والاستزادة.

كانوا يحدّثوننا عن الملائكة الذين يتعاقبون على حراسة عباد الله في الأرض، ففوج يأتي في الصباح وفوج يأتي في

المساء، وكانوا يحذروننا من رمي الأحجار أو سكب الماء الحار أثناء انتهاء نوبة ملائكة الصباح، لأنّ هناك فراغاً بين النوبتين يستطيع الجنّ فيها استغلالها لإلحاق الأذى بالناس. وقد كنا نذهب لأداء صلاة المغرب في المسجد ونحن مؤمنون بأننا لا نتخطى الشوارع وإنما نتخطى الجن والشياطين، وأنّ أي حركة خارج «السيناريو» ربما تؤدي إلى العقوبة الوخيمة.

وأذكر أنّ وفاة جدتي أحدثت بي وقعاً نفسياً رهيباً، لا لافتقاد حنانها وعطفها وحبها لي، وإنما لخوفي أن يظهر لي جنّ متقمّص صورة جدتي من أحد أزقة حيّنا وأنا ذاهب للمسجد أو راجع منه، مستذكراً عشرات القصص التي رواها لنا شيوخنا والأشرطة التي صرت أسمعها لمشايخ الخليج حول قدرة الجنّ على تقمّص شخصيات الموتى.

وفي لقائي بأحد الملتزمين، أكد لي أنّ أخاه استطاع في الأسبوع الماضي القضاء على جنّي تعوّد على أذيتهم داخل مسجدهم بالمنامة، وروى لي أنّ أخاه قد غافل الجنّي وأمسك به من خناقه وتصارعا وتشقلبا مثل أفلام الإثارة الأمريكية، ثم أخذَتْ أخاه سنةٌ من النوم استيقظ بعدها على صوت أذان الفجر، ليكتشف أنّ الجني الذي صارعه في الليل تحوّل إلى رماد تحته.

وفي إحدى المحاضرات، سمعت شيخاً مشهوراً بإخراج الجنّ من الناس يؤكد أنّه على اتصال دائم بجنّي قصير وله لحية ويلبس عمامة وقد سمى نفسه عبد الوهاب بعد إسلامه، وهو يقيم في الطابق الثاني بالجامع الشمالي بمدينة عيسى. وبسؤالي إمام الجامع الشمالي أكد لي أنّ القصّة مختلقة وأنه لا يوجد في الجامع طابق ثانٍ حتى يسكن فيه عبد الوهاب.

وسرد لنا الشيخ في محاضرته أنّ أحد الأشخاص جاءه مشتكياً من تسلّط جنية عليه، ومجيئها له في كلّ ليلة على هيئة ممثلة مشهورة، مما يضطره إلى مواقعتها رغم زواجه. وروى لنا الشيخ أنّه أخذ يقرأ على الرجل حتى خرجت الجنية، وأراد أن يختبر صدق الرجل، فدعاها مرة أن تكون ليلى علوي، ففعلت، ودعاها مرة أخرى أن تكون نبيلة عبيد، ففعلت (هذه الحادثة وقعت طبعاً قبل ظهور أليسا ونانسي عجرم)، فاستغفر الله وطردها بعد أن تأكد من صدق رواية الرجل.

وفي خضم هذه الأجواء، وفي خضم حماسي لتبليغ دعوة الله للناس وتطبيق شريعته، وإرجاع عصر الإسلام الزاهي،

دعتني زوجة عمي للتحادث، وبادرتني معاتبة: «جيد للمرء أن يلتزم، ولكن ليس من المستحب أن يتشدّد، التشدّد غير مقبول لدى طفل في سنّك». واستحضرت في تلك المحادثة القصيرة كلّ ما سمعته من مشايخي حول مصاعب الدعوة إلى الله والعوائق التي تعترض طريق الداعية، ومكابدة الرعيل الأول في توصيل دعوة الله إلى القاصي والداني، وكدت أقول لها: «والله لو وضعوا الشمس بيميني والقمر بشمالي...»، إلا أنّي لم أكن أحتاج إلى شمس أو قمر، بل إلى كرة قدم.

لقد تغلب ولعي بكرة القدم على كلّ ما حافظت عليه من إيمان وتقوى والتزام طوال سنتين كاملتين، تخلّيت عن الغترة وعن الثوب وعن السواك، ولبست مرة ثانية لباس الرياضة؛ واستطاعت كرة القدم أن تفعل ما لم تستطع فعله زوجة عمي، وأصحابي.

رجعت طفلاً مرة أخرى، بعد أن دخلت خلال السنتين الماضيتين عوالم الجن والشياطين والأرواح الشريرة والخيّرة، فنزعت خفّي أبي جهل، ونفضت عنّي غبار زوجة أبي لهب، وألقيت الفؤوس التي كنت أحملها لأهدم أصنام الحالة والمحرق والسنابس.

مارست اللعبة كما لم أمارسها من قبل، ربما كنت أريد أن أعوّض السنوات التي فاتتني في الأوهام والخرافات، وعدت طفلاً أكثر من أيّ وقت مضى، وقد ساهمت عبارات السبّ والتعليقات الجنسية التي يبرع فيها زملاء الكرة في أن أنسى أوهامي بخروج جدّتي من أحد أزقة عراد، وأن أنسى كيف استطعت وأنا طفل أن أحافظ على الغترة فوق رأسي بدون عقال، وكيف كنت أمرّ على جيراني، وأزور أبناء عمي وهم يلبسون القميص الرياضي لنادي المحرّق وأنا أرتدي «يوني فورم» بني عبد شمس.

عالم الجن من جديد

تخليت عن ذلك اللباس، وانشغلت بكرة القدم. ولكن كان لدي دافع دائم لمن يدفعني للعبادة أكثر، للتشدّد أكثر. وذلك نابع مما تبقى من تأثير مشايخي، حيث أنّ طرحهم دائماً ما يؤكد على أنّ الحياة عبارة عن إشارات خضراء قليلة، وإشارات حمراء كثيرة، فالإشارات الخضراء هي الحلال، والحمراء هي الحرام، وأنّه لا توجد إشارات صفراء ولا بيضاء، وأنّ الاكتفاء بأداء الفرائض والتحلّي بالخلق الرفيع لا يكفي، بل لا بدّ أن يتعرّف المرء على الحرام لكي يتجنّبه، وأنّ المصدر الذي يتعرّف المرء من خلاله على هذا الحرام هو المشايخ.

المشايخ، نعم المشايخ، هم أصحاب الأمر والنهي، هم من يملكون أزمّة الأمور، وهم من يتحكمون بالناس، وهم من ينصّبهم الناس أصناماً لتقرّبهم إلى الله زلفى، وهم من عيّنهم الناس وكلاء لله في الأرض؛ فليس بمستغرب أن تجد هواتف المشايخ لا تسكت من المتصلين والمتصلات، فكلّ

شؤون الدين ومعظم شؤون الدنيا يملك أسرارها الشيخ، ودخول الجنة مرهون بمدى استطاعة المرء تجنّب ما قرّره الشيخ حراماً.

وبما أنّي قد افتقدت شيوخي الأوائل، بسبب «ضعف إيماني» الذي دفعني للاستغناء عن غترتي المسدولة على صدري، وعن ثوبي القصير ومسواكي ذي الرأس الأشعث، فلم أجد ملجأ لمعرفة الحرام إلا من خلال الأشرطة السمعية. وقد كان لدينا في مسجد أسامة بن زيد مكتبة تحتوي على أشرطة لعدد من مشايخ الخليج ومشايخ مصر، فبدأت بسماعها واحداً واحداً.

أعجبتني تلك الأشرطة، وعرّفتني بعوالم جديدة وبنواهٍ جديدة (وما أكثرها)، وبقصص مثيرة ربما أمتع من رحلات السندباد ومغامرات علي بابا: فلأول مرّة أتعرّف على الشجاع الأقرع الذي ينتظر الميت العاصي في القبر ليلتفّ عليه ويهشم عظامه، ولأول مرّة أسمع الجنّية مرجانة وهي تتحدّث للشيخ الذي يحاول إخراجها من جسد المريض ويدعوها للتوبة والرجوع إلى الله أو مغادرة الرجل بسلام (ومن إصبع القدم اليسرى رجاءً)، ولأوّل مرّة أستمع إلى قصة الرجل الذي كان يذهب إلى الهند ليزني فيجلس من الصباح وإذا بالدود ينخر في جسمه.

ورغم جبني وخوفي، إلا أنّه تولّدت لديّ رغبة كبيرة في رؤية هذا الشجاع الأقرع لأصبح من رواة مثل هذه القصص للناس؛ ولكم حضرت جنازات، وكان الجميع خافض الرأس مطأطئه حزناً وخشوعاً، إلا أنا فقد كنت أراقب حملة النعش، وما إذا كانوا يحسّون بثقل الميت بسبب معاصيه، وهل سيفتحونه فيشعرون بحرارة في بطنه جراء كَنزه للذهب والفضة، ومتى سيخرج الشجاع الأقرع ليلتفّ على جسمه. ولكن في كلّ مرة أعود خائباً خاسراً، وأمنّي النفس بالجنازة القادمة.

أما عالم الجنّ، فقد دفعني إلى شراء كتب كثيرة عنه، واستعارة كتب أخرى، وكلّها تروى قصصاً عجيبة عن ذلك الجنّي اللعين الذي يعاشر المرأة ولا يدعها تصلّي بسبب المني الذي يخلّفه على ثيابها، وعن أولئك الجنّ الذين يتشكلون على هيئة قطط سوداء أو عنز ويؤذون كلّ من يؤذيهم. ولقد تسبّب ولعي بهذه القصص المثيرة في أن أقضي الليل دائماً بدون أن أغلق الضوء، وأن أختصر من قضائي للحاجة في الحمام.

أمّا أجمل ما استمعت إليه، فهي قصص الفنانين ومعاصيهم وتوبتهم؛ وقد وجدت في تلك المادّة ما كان

يستهوي طفلاً على وشك البلوغ. فساهمت هذه الأشرطة في ابتعادي وكرهي للفنّ والفنانين، ولكن في عقلي الباطن كانت القصص تستهويني، فقد جذبتني قصة تلك الممثلة الشابّة التي دعاها المخرج إلى التدريب في بيته لستة أشهر على كلّ الحركات التمثيلية، من الحركات المطلوبة في غرفة الصالون إلى أدق الحركات في غرفة النوم. ولكم ثبتت في ذهني قصة ذاك المخرج الذي كان يصوّر مشهداً تكون فيه زوجته في أحضان ممثل، ويقوم المخرج بإعادة المشهد أكثر من مرّة حتى تكون القبلة بينهما من الأعماق.

ولقد مكثتْ هذه الصور وهذه المشاهد في ذهني، فاستجبتُ لدعوة الشيخ للامتناع عن مشاهدة الأفلام لما تحتويه من ابتذال، ولوقوعها ضمن مخطط غربي يهدف إلى تقويض الأخلاق وهدم قيم المجتمع. ولم أستطع أن أتخلّص من وقع القصص المروية عن حياة الفنانين والفنانات إلا بعد أن اطّلعت على أوضاع النساء في المحاكم الشرعية، ووجدت أنّ ما يحدث بين النساء والقضاة الشرعيين في هذه المحاكم في الدول العربية لا يقلّ فظاعة عمّا سمعته في تلك الأشرطة.

انضمامي إلى الجماعة الثانية

استمرت علاقتي بالأشرطة وبكرة القدم: أستمع إلى الأشرطة صباحاً، وأمارس كرة القدم مساءً؛ والأخيرة قادتني للانضمام إلى جماعة أخرى أكبر أثراً وأكثر تنظيماً وأنضج عملاً، فقد دعاني زميلي في المدرسة إلى ممارسة كرة القدم مع طلاب في سنّي بإحدى المدارس، فوافقت على الفور، وأحببت اللعب معهم، وأحببت تودّد مدرّسيهم لي. فلأول مرّة أجد أحداً يوفّر لي الملعب ويرجوني أن أستمّر في اللعب في الأسابيع القادمة.

وأعجبني أكثر أنّهم كانوا ينهون اللعب مع أذان المغرب، فنذهب لنؤدي الصلاة خلف حكم المباراة. فأحسست أني وجدت ضالّتي، فها هنا أستطيع أن أمارس كرة القدم، وفي نفس الوقت أجد من يأخذ بيدي نحو الصلاة والعبادة، فقرّرت أن أستمرّ معهم.

مكثت أسبوعين أو ثلاثة أسابيع وأنا منتظم في ممارسة كرة القدم مع هذه الجماعة، عصر كلّ يوم جمعة. فازداد

ارتباطي مع أقراني، وازداد إعجابي بالقائمين على اللعب وحكم المباراة، وازداد حبّي للعب معهم، لأني لأوّل مرة أمارس كرة القدم دون شتائم ودون عراك، فاللعب يبدأ بالودّ وينتهي بالودّ أيضاً، ويختتم البرنامج كاملاً بالصلاة؛ بل هناك شباب قد هيأوا السيارات الشخصية للمرور علينا في منازلنا وإرجاعنا إليها بعد اللعب.

ولقد دعاني صاحب السيارة بعد إرجاعي للبيت إلى حضور الدرس الأسبوعي بأحد مساجد مدينة الحدّ؛ أوه... دروس أيضاً؟ وافقت على الفور طبعاً، فأنا متعلق سابق بالدروس الحيّة، ومتعلّق حالياً بالدروس السمعية، وأنا في حنين دائم إلى دروس حية أذهب إليها دون غترة مسدلة على الصدر ودون ثوب قصير.

دخلت المسجد، وبدأ الدرس. كان درساً في الفقه، عن الطهارة (الطهارة مرة ثانية؟!)، ولكنه درس بدون حصى، وبدون إحراج، درس حول الوضوء والماء المعدّ له، واختلاط الماء بالنجاسة، والاغتسال (كنت أعتقد أنه الاستحمام الصباحي للذهاب للمدرسة)، وهناك فصل مضى عليه سريعاً حول المني والمذي والودي، ولم أكن أعرف معناها ولم أسأل.

كان المتحلّقون للدرس لابسين الثياب البيضاء، وبعض الصغار معهم بلباس الرياضة، أكثرهم حليقو اللحية، وأكثرهم مطيلو الثياب. هم من صنف آخر إذن غير الصنف الذي رافقته ضمن الجماعة القديمة، وحتى الشيخ الذي يلقي الدرس كان حليق اللحية، ولا يختلف شكله عن شكل المواطنين الذين يسيرون في الأسواق ويقبعون وراء كراسيهم في المكاتب الحكومية. وبعد انتهاء الدرس أتى أحدهم بالمرطبات والكعك وأخذوا يأكلون، فاستحضرت العشاء الذي دعتني إليه الجماعة السابقة، وكان عبارة عن إناء غزير فيه مرق الخضار، ويمرره الجالسون على بعضهم بعضا فيشرب كل واحد منهم من هذا الإناء بفمه مباشرة ويناوله لزميله، وحينما رأوا الدهشة بادية على وجهي قال لي أميرهم: «إن الصحابة كانوا يشربون من إناء واحد، ولم يكونوا مثل الجيل الجديد المقلّد للغرب حتى في وسواسه».

إذن رجعت إلى التديّن مرة أخرى: الدروس وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعال الصحابة رضوان الله عليهم والقصص والأشرطة، ولكن عند جماعة أخرى غريبة بعض الشيء عما ألفته لدى الجماعات الدينية الأخرى.

وبما أنّ التديّن بالنسبة لي – وكما علمني مشايخي

الأوائل - هو تجنّب الحرام وتغيير المألوف وإحداث فوضى في النظام العام للحياة، فقد أحدث لي رجوعي إلى التديّن مرة أخرى قلقاً شديداً، فأثناء احتكاكي بالجماعة الجديدة وسماعي لأحاديثهم وذهابي معهم في رحلاتهم وطلعاتهم كنت أعلن بصراحة شديدة عدم اقتناعي بتساهلهم في الدين.

كنت منزعجاً من تساهل الجماعة مع أعضائها حينما كانوا يكشفون عما فوق ركبهم وعن سرّتهم أثناء استحمامهم في برك السباحة، وكنت منزعجاً من حديث السيدات أعضاء الجماعة مع الرجال دون أن يغضضن من أبصارهنّ. وأذكر أنّ أحداً من أعضاء الجماعة رأى في يدي كتاب الكبائر للإمام الذهبي، فتصفّحه وأشار لي بأن الكتاب جيّد ولكنه يتّسم بشيء من التشدّد، إذ لا يمكن - بحسب رأيه - أن يدرج الإمام الذهبي إطالة الثوب ضمن الكبائر ويضعها في مقام واحد مع الزنا وشرب الخمر وأكل مال اليتيم. ولقد سكتّ منبهراً: هل هناك امرؤ يجرؤ على تخطئة إمام بحجم الإمام الذهبي؟!

وأذكر أنّي خلال أشهري الأولى على انضمامي للجماعة، ورغبتي في الرجوع إلى التديّن، كنت أضيق ذرعاً بهذا اللبس

عندها، وبعدم وضوح الفواصل بين الحلال والحرام، وبتساهلهم في الدين. لذا، فقد كنت أثناء مروري بمساجد السلفيين أجد الرغبة لديّ واضحة في أن أدخل وأنخرط مع جماعتهم التي عندها الحلال بيّن والحرام بيّن. فإذا اجتنبت الحرام البيّن دخلت الجنة، أما إذا فضلت الاستمرار مع الجماعة الجديدة فربما تلتبس عليّ الأمور، فأظلّ مستمرّاً في ارتكاب الحرام ظنّاً مني بأنه حلال، وبذلك لن يكون مصيري إلا إلى النار وبئس المصير.

الموسيقى الضحية

أثناء فترة اللَّبس التي عشتها، والفترة المرحلية بين الجماعة القديمة والجماعة الجديدة، اتخذت موقفي بشأن الموسيقى. كنت قد انضممت إلى الفرقة الموسيقية بمدرسة عراد الابتدائية منذ الصف الثاني الابتدائي، وقد بقيت فيها إلى أن أصبحت قائدها من الصف الرابع إلى الصف السادس. وقد كنت أعزف على آلتين، وهما الميلوديكا والأوكرديون، وفي البيت كنت أعزف على الأورغ والغيتار.

وحين وصلت إلى المرحلة الإعدادية بمدرسة طارق بن زياد دعاني مدرس التربية الموسيقية هناك للانضمام إلى الفرقة الموسيقية، بعد توصية من معلم التربية الموسيقية بالمرحلة الابتدائية. ومكثت في الفرقة طيلة الأول الإعدادي، وبعد عام جاءنا الموسيقار الأستاذ خليفة زيمان مدرساً للتربية الموسيقية[١].

---

١ الموسيقار خليفة زيمان يشغل حالياً منصب قائد فرقة البحرين للموسيقى العربية.

كنا نأتي للتدرّب والعزف قبل قرع جرس الطابور الصباحي، وأثناء الفسحة كلّ يوم، وأحياناً في فترة العصر.

وما زلت أذكر ذلك اليوم الذي كنت فيه أعزف موسيقي مسلسل رأفت الهجان، ولم أكن أدري أنّ الجميع يستمعون لي، وبعد انتهائي من العزف وجدت أنّ الأستاذ خليفة زيمان يصفّق لي وجميع الطلاب يصفقون بين معجب بالعزف وبين حاقد على إطراء زيمان لي.

ولكن بعد أسبوعين أتيت للموسيقار خليفة زيمان وأبلغته بخبر صعقه جداً:

- لن أستمرّ مع الفرقة.
- (بدهشة بالغة) لماذا؟
- لأنّ الموسيقى حرام!
- ولكنك موهوب، وقد كنت أفكّر في دعوتك للانضمام إلى فرقة أجراس الموسيقية[1]، وبالأمس أبدعت في عزف موسيقى مسلسل رأفت الهجان!
- ولكن الموسيقى حرام!

---

١ فرقة أجراس الموسيقية من الفرق الكبيرة في البحرين التي تركت أثراً بالغاً في تطوّر الموسيقى البحرينية، ولقد ساهمت أسرة زيمان في تأسيسها وإدارتها، ولكنها أعلنت عن توقفها لغياب الدعم.

- ليس هناك ما يثبت ما تقول، مَنْ قال إن الموسيقى حرام؟ الموسيقى في حياتنا كلها، كيف نتخلص منها، إذن نستغني عن جزء أساسي من حياتنا.

- ....

- إذا أتيت لي بما يقنعني بأنّ الموسيقى حرام، فأنا أول من سيترك الموسيقى.

انصرفت مزهوّاً بما أقدمت عليه. وفور عودتي من المدرسة ذهبت إلى مكتبتي الصغيرة وأخرجت أحد الكتب التي تتحدث عن الموسيقى وحرمتها (وما أكثرها)، وذهبت به في اليوم التالي إلى الموسيقار خليفة زيمان.

قرأه على عجل، وحدّثني بحديث قصير ومركّز حول الأحاديث ومدى صحتها، وبأنّ تدوين الحديث جاء متأخراً، وأنّ كثيراً من الأحاديث ربما تكون موضوعة، وحدّثني عن ضرورة معرفة المناسبة التي قيل فيها الحديث لو ثبت. ولكني كنت قد اخترت طريقي: الحرام حرام، والحلال حلال، فأيَّ الطريقين أختار: طريق الجنة، أم طريق الموسيقى المفضي إلى النار؟ تبّاً للموسيقى، وتباً للأغاني.

تخلصت من جملة ما تخلصت من الأورغ الذي كان رفيقي دائماً في البيت، والذي كنت لا أفارقه إلا للعب كرة

القدم أو للنوم؛ سألني أخي: هل نعطيه لابن خالتي إذا كنا لا نرغب فيه؟ فرددت عليه: وهل تريدنا أن ننشر الإثم؟ فقام أخي من فوره بتحطيم الغيتار، رفيقه هو الآخر. وبذلك خلا بيتنا من المعازف والأغاني.

نقلت ما دار بيني وبين خليفة زيمان إلى كبار جماعتي الجديدة، وحدّثتهم عن تخلصي من معازفي، فباركوا لي هذه الخطوة وأيدوني بها، وعرّفوني على موسيقاهم الخاصة، الموسيقي الحلال: الأناشيد.

ولادة الشعر عندي في أحضان القنابل

لم تكن الأناشيد هي البديل الذي وفرته الجماعة لي عن الموسيقى، بل حتى عن الشعر. وعلاقتي بالشعر بدأت منذ كنت في الثانية عشرة من عمري، حيث كنت أعبث بكتب أمي المدرسية التي كانت تحتفظ بها منذ أن تخرّجت؛ واستوقفتني فجأة قصيدة إيليا أبي ماضي «الطلاسم»، وبخاصة ذلك المقطع:

قد سألت البحر يوماً: هل أنا يا بحر منكا
أصحيح ما رواه بعضهم عني وعنكا
أم تُرى ما زعموا زوراً وبهتاناً وإفكا
ضحكت أمواجه مني وقالت: لست أدري

وحينما بلغت المرحلة الإعدادية، تفاجأ مدرس اللغة العربية بحفظي لهذه الأبيات، وتساءل ما السرّ الذي يدفع طفلاً في الثانية عشرة من عمره لتستوقفه هذه الأبيات. ومنذ ذلك اليوم وديوان أبي ماضي يلازمني دوماً، إلى أن صعقني أحد الأعضاء الكبار بالجماعة حينما وجد عندي

الديوان، وأشار لي أن أتجنّب بالتحديد قصيدة «الطلاسم» لما بها من إلحاد.

ونظراً لاهتمامي الواضح بالأدب والشعر، فقد أهداني أحد أعضاء الجماعة شريطاً لأحد المشايخ المشهورين، كان يقول فيه: «أدونيس على وزن إبليس، وحسّان (يقصد حسان بن ثابت) على وزن رضوان»، داعياً المستمعين إلى الابتعاد عن قراءة «كفريات» أدونيس والاكتفاء بقراءة «إيمانيات» حسان بن ثابت، شاعر الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

أما فيروز، فقد كانت لا تُذكر إلا وتُذكر معها أغنيتها «الكفرية»:

أعطني الناي وغنّي	فالغنا سرّ الوجود
وأنين الناي يبقى	بعد أن يفنى الوجود

ويدور الحديث دائماً حول كيفية السماح لمثل هذه الكلمات الكفرية بالانتشار في مجتمع مسلم، إذ إنه حينما يفني الوجود لا يبقى إلا الله الواحد الأحد.

أما نزار قباني، فهو عند الجماعة ليس سوى ذلك السكّير العربيد الذي لا ينفك يصف المرأة من ناصيتها إلى أخمص قدميها. والذي وفّر على الشباب رؤية الأفلام الإباحية بما يوفّره من وصف دقيق للزنا وللعلاقات غير الشرعية على الفراش.

فكان يلزمني، بحسب رؤية الجماعة، أن أتعلق بالأدب وأحبّ الشعر بدون إيليا أبي ماضي الملحد، وبدون نزار قباني العربيد، وبدون فيروز ناشرة الكفر والضلال.

ولقد كان حظّ موهبة الشعر عندي أن بدأت وأنا ملتحق بهذه الجماعة، وأنا لا أملك من مخزون الشعر عندي سوى ما بقي من قراءاتي الأولى لإيليا أبي ماضي وغيره، وسوى ما أسمعه في كلمات الأناشيد التي وفرتها لي الجماعة بديلاً للأغاني. فلم أكن أستحضر سوى ما يرد في هذه الأناشيد، من مثل:

لبيك إسلام البطولة كلنا نحمي الحمى
لبيك واجعل من جما جمنا لعزّك سلّما

أو من مثل:

بارودتي بيدي وبجعبتي كفني
كابول فانتظري فجري ولا تهني

أو من مثل:

اذكر هجوم هادم اللذات
وفجأة الزوال والممات
واعمل بما يرضي الإله عنك
من قبل أن تأتي المنية والوفاة

وأذكر أنّ أول قصيدة نشرت لي في الصحافة المحلية كانت عن انتصار «المجاهدين الأفغان» على القوات السوفياتية، وقد قمت بكتابتها استجابة لطلب من أحد أعضاء هذه الجماعة، فحصلت على ثناءات عديدة؛ وكان عمري حينها ستة عشر عاماً.

أما القصيدة الأشهر، فقد كانت تلك التي كتبتها ولم يتعدّ عمري السابعة عشرة حول طفل من البوسنة زارنا في البحرين، ووجدته يبكي، ربما لفراق أبويه. وقد نُشرت هذه القصيدة بنشرة الجماعة الشهرية على صفحتين كاملتين؛ وكنت على موعد حينها مع الشهرة. وبقدر ما حققتْ لي هذه القصيدة من شهرة على مستوى الجماعة، فقد آذت مسيرتي مع الشعر، إذ حوّلتني هذه القصيدة من شاعر صغير إلى قناة إخبارية، مطلوب منها أن ترصد ما تمّر به الأمة الإسلامية من آلام وحروب ونقلها شعراً. ولذا، فقد ألّفت عدّة قصائد حول القدس والانتفاضة، وكنت مجبراً للكتابة عن كلّ حدث يطرأ بفلسطين، من محادثات السلام في مدريد وأوسلو إلى اتفاقية السلام؛ وقد لامني أعضاء الجماعة في عدم كتابتي أي قصيدة عما يعانيه إخواننا في الشيشان.

وبالإضافة إلى تحوّلي إلى قناة إخبارية شعرية، فقد انحصرت مواضيعي الشعرية أيضاً حول الاستعداد للممات ومشاعر الذاهبين إلى العمرة، والأخوة في الله، وغيرها. إلا أنّ موضوع الحبّ في قصائدي ظلّ تائهاً بين الحروب والمقابر، فمتى يمكن أن يكتب الشاعر عن الحبّ إذا لم يكتبه في فترة المراهقة وفترة الجامعة؟

وجزاءً على تحوّلي إلى قناة إخبارية شعرية تمّ إعطائي عضوية عامل في رابطة الأدب الإسلامي العالمية. فدُعيت في صيف العام ١٩٩٦م إلى مؤتمر الرابطة في إسطنبول، وكنت حينها في العشرين من عمري، وكنت أصغر عضو في هذا المؤتمر.

وقد حضر المؤتمر نخبة من المشايخ، يتقدّمهم الشيخ حسن الندوي رحمه الله والشيخ الدكتور يوسف القرضاوي والأستاذ محمد قطب (أخو سيد قطب) والأديب والمؤرخ مبارك الخاطر رحمه الله، وغيرهم كثير.

وفي اليوم الأخير، عُقدت أمسية شعرية شارك فيها الشعراء أعضاء الرابطة، وأذكر أنّني قرأت قصيدة هجاء في الحبّ والعشاق، بعنوان «دموع من أجل ليلى»، جاء في مطلعها:

كفكفِ الدمع يا غرير فلا
أحسب هذي الدموع إلا الياء

كفكف الدمع ثم قلّ لي بحقّ
هل بحبِّ المليحة ازددت عقلا

إنني لا أرى بحبك إلا أنك
ازددت فوق جهلك جهلا

فصفّق الحضور بحرارة، وقال لي الشيخ القرضاوي بأنّ القصيدة كانت مسك ختام الأمسية، وهنأتني الشاعرة علية الجعار[1] رحمها الله بعد الأمسية، وقالت لي بأنها لم تتمالك نفسها وغلبتها مدامعها، إذ كان مؤثراً بالنسبة لها رؤية شابّ في مثل هذا العمر ولديه هذه النظر للحب والعشاق، وأهدتني نسخة من ديوانها الشعري.

هكذا عاش شعري وهكذا تربى. ولكن بعدها بأربع سنوات أعلنت إلغاء عضويتي في رابطة الأدب الإسلامي، لإيمان متأخر عندي بأنّه لا يوجد شعر إسلامي وغير إسلامي، وأنّ هذا التقسيم يضرّ بالشعر. وبدأت من يومها كتابة الشعر من غير موعد، بحسب حالتي الشعورية؛ ووجدت الشعر يقودني إلى الحبّ والغزل.

---

1 علية الجعار شاعرة مصرية اشتهرت بدفاعها الكبير عن الإسلام في قصائدها ومشاركاتها في الندوات والمحاضرات النسوية، وهي جدّة الممثلة المصرية شمس.

اكتشاف المرأة متأخرا

الحديث حول الغزل يقودني للحديث عن المرأة. فمثلما تربّى شعري في سنواته الأولى في حضن الجماعة وتوجهاتها، فإنّ المرأة ظلّت لديّ كائناً خرافياً طوال سنوات مراهقتي، وطوال دراستي الجامعية، ولم أتعرّف إلى هذا الكائن إلا بعد أن التحقت بوظيفتي الأولى.

كان موعدي مع هذا الكائن الخرافي في جريدة الأيام، حيث دخلت إلى الجريدة متدرّباً في العام ١٩٩٨م، ثم صحافياً في قسم الأخبار المحلية بعد أن تدربت لمدة أسبوعين تقريباً. وكان قدري أن ألتقي بهذا الكائن المسمى بالمرأة في الأيام؛ ولم تكن أية امرأة، إذ كان حظي أن أدخل عالم المرأة من بوابة عيون زرقاء صافية، وشَعر أذيب بأشعة الغروب، وصوت كالموسيقى.

أين كنت من هذا الكائن الذي يستطيع أن يحلّق بالمرء إلى السحاب بالتفاتة أو بهمسة أو بضحكة خجولة؟ ولمن يُكتب الشعر إذا لم يُكتب لعينين مُفضيتين إلى عالم الطهر

والسحر؟ ولا عجب في أن وجدت نفسي شيئاً فشيئاً متجهاً إلى كتابة شعر الغزل، وتصدّرت دواوين نزار قباني مكتبتي. ومن يومها تعرّفت على فيروز (ناشرة الكفر) بأغنيتها:

أنا لحبيبي وحبيبي إلي
هي عصفورة بيضاء لا بقى تسألي
لا يزعل حدا ولا يعتب حدا
أنا لحبيبي وحبيبي إلي

من خلال اتصالي بالجماعة الأولى، واستماعي لأشرطة المشايخ وحضوري للدروس، لم يكن ذِكر المرأة يأتي إلا بذكر أنها أحبولة الشيطان، وبأنّ نظرتها سهم من سهام أبليس، وأنها فتنة من رأسها حتى أخمص قدميها. وكم كنت أحفظ من القصص عن المرأة ومكائدها: عن تلك المرأة المسيحية التي أغوت مؤذن المسجد وهو صاعد للمنارة ليؤذن فلم يكمل أذانه، ودعته ليتزوجها، فمات والصليب معلّق على صدره. أو قصة الإمام الشافعي الذي رأى كعب امرأة ففقد ملَكته في الحفظ. أو الحديث المنسوب للرسول صلى الله عليه وسلم والذي ورد فيه أنّ أكثر أهل النار من أمته من النساء، وأنّ الكاسيات العاريات المائلات المميلات واللائي

رؤوسهنّ كأسنمة البخت المائلة لن يدخلن الجنّة ولن يجدن ريحها.

أما في الجماعة الثانية، فعلاوة على وجود مثل هذه القصص والأحاديث وورودها في كلّ حديث حول المرأة، إلا أنها كانت أحاديث تدور أيضاً عن المنظمات الماسونية والمؤسسات الغربية التي تستخدم المرأة ضمن خططها لهدم قيم الإسلام في المجتمعات العربية والإسلامية، وأنّها تجاهد من أجل نزع خمار المرأة وحجابها.

وقبل دخولي الجامعة كان لدينا اجتماع حضره جميع أعضاء هذه الجماعة المقبلين على الالتحاق بجامعة البحرين، وحضره أحد الدكاترة في الجامعة، وألقى درساً تحدّث فيه طويلاً حول الطرق التي تمكّن الطالب الجامعي من تجنّب الحديث إلى البنات هناك، وكيف أنّ بعض الإخوة من أعضاء الجماعة يضعفون أحياناً، فيبدأون بالحديث مع الزميلات في الجامعة، أو يتبادلون ملازم المقرّرات، وربما يتبادلون الضحكات (والعياذ بالله).

وكان هذا الدكتور (وهو حليق اللحية)، يبيّن لنا أنّ على الطالب الجامعي إذا بدأته الزميلة بكلام أن يخفض رأسه

وينسحب، لأنه إذا فتح المجال للكلام في أوّل مرة سوف يتعوّد على الحديث مع البنات.

كان الوضع يشبه وضع الاستعداد للحرب، وبما أنّ البنت كانت بالنسبة لي كائناً خرافياً، فقد طبّقت ما يقوله الدكتور صاحب الخبرة بحذافيره، فحينما انتظرتني زميلتي في التمهيديّ بعد انتهاء المحاضرة لتسألني عن صلة قرابتي بصديقتها، فررتُ منها فراري من المجذوم، ولم تعد زميلتي إلى فعلتها مرّة أخرى.

قضيت خمس سنوات بجامعة البحرين، وكانت المرأة موجودة معي في الفصل وفي الممرّات وفي الكافتيريا، ولكنّي وضعت بيني وبينها حاجزاً إسمنتياً، وبذلك ظلت المرأة بالنسبة لي كائناً خرافياً، ولم أتعامل معها إلا عندما التحقت بالصحافة.

ولقد اعتبرتُ قصص الحبّ التي كنت أقرأها للمنفلوطي والطنطاوي قصصاً خرافية، ينبغي أن أقرأها ولا أومن بها. والغريب أنّني لم أجد حينها أيّ تناقض بين المرأة عند المنفلوطي التي يسمو حبّها بالروح، وبين المرأة عند جماعتي التي هي أحبولة الشيطان وسهم من سهام أبليس!

وفي جريدة الأيام عرفت المرأة. ونظراً لأني كنت أتعامل

مع كائن غريب، فقد كنت أرفع المرأة التي تعجبني إلى مقام الملائكة، وكنت أندم بعد ذلك إذا وجدت منقصة واحدة بها؛ فلم أكن أتقبّل من ملَك هفوة أو غلطة، فالملائكة لا تخطئ. واستطعت شيئاً فشيئاً أن أتجاوز هذه التصوّرات، وكنت أشبّه نفسي بالطفل الذي تأخذه أمه لأوّل مرة إلى المدرسة، فيبكي في أول يوم، ثم تغدو مدرسته بالنسبة إليه عالمه المفضّل، ثم يعود إلى رشده فيعرف حجم المدرسة بالنسبة إلى عالمه الكبير.

ولقد كنت طفلاً بمدرسة المرأة، ولكنّي طفل في الثالثة والعشرين من العمر.

الخرافة مرة ثانية

يوم قرّرت الالتحاق بالمعهد الديني في المرحلة الثانوية لم تفضّل جماعتي ذلك. كان اختياري نابعاً من شغفي وحبّي للغة العربية وللشعر، ولم يكن نتيجة تعلّقي بتحصيل العلوم الشرعية، وعرفت أنّ مناهج اللغة العربية في المعهد الديني من أفضل المناهج في بلدي. ففي المعهد الديني درسنا شرح ابن عقيل في النحو كاملاً، فيما كنا في قسم اللغة العربية بجامعة البحرين نأخذ أجزاء منه فقط، ودرسنا البلاغة كاملة والصرف كاملاً والعروض ببحوره الستة عشر، بالإضافة إلى النحو والصرف والبلاغة التي نأخذها أثناء دراستنا للتفسير والحديث.

أما جماعتي، فقد نصحوني بأن ألتحق بالمسار العلمي، وأن أصبح بعدها طبيباً أو مهندساً أو محلّل نظم إلكترونية، ولقد قال لي أحد الأعضاء الكبار: «بصراحة، نحن في الجماعة نحتاج إلى مهندسين وأطباء أكثر من حاجتنا إلى مشايخ دين». ولكني كنت قد عزمت على الالتحاق بالمعهد الديني وسجلت اسمي رسمياً هناك.

هذه الرغبة التي تمّ تبليغي بها، هي السرّ وراء الوفرة في المتخصصين في الهندسة والطب والكمبيوتر في هذه الجماعة. أما التخصص في الشريعة فقد كان يترك لـ«العنيدين» مثلي، أو للذين لا يتوسّمون منهم نجاحاً في التخصصات العلمية، أو الذين لم يسعفهم مجموعهم في الثانوية العامة بالالتحاق بغير تخصص الشريعة.

والمتخصصون من الجماعة في الشريعة كانوا من خريجي الجامعات السعودية، من جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض أو الإحساء. وهذا ما يفسّر انتشار الآراء الفقهية السلفية عند هذه الجماعة، من مثل الدعوة إلى لبس المرأة للنقاب، أو في حكمهم على الموالد النبوية، أو في موقفهم من الأشاعرة والماتريدية في مسألة صفات الله.

ولعلّ هؤلاء المتخصصين الذين يكون أغلبهم من ضعيفي التحصيل الدراسي، والذين قادتهم مجاميعهم الضعيفة إلى دراسة الشريعة هم السبب وراء انتشار التفكير الخرافي وتصديق القصص الخيالية والفنتازية في أوساط الجماعة؛ رغم ما تحتويه هذه الجماعة من متخصصين في شتى أنواع العلوم ومن دكاترة وأكاديميين.

أذكر أن مراحلي الأولى مع هذه الجماعة صادفت

اشتداد الحرب بين أفغانستان والاتحاد السوفياتي، وقد كانت تصل إلى الجماعة نشرة يومية يصدرها «المجاهدون» هناك، تعلّق على لوحة عند مدخل مقرّ الجماعة، ترصد آخر الأخبار والمعجزات التي تحدث كلّ يوم.

وكان قادة المجاهدين الأفغان يأتون إلى البحرين لسرد قصص جهادهم والكرامات التي منّ الله عليهم بها، وكانت كتبهم ومقالاتهم بين أيدينا تزخر بالعديد من القصص الفنتازية الغريبة، ومنها أنّ أفغانياً حاصرته دبابة روسية في زقاق، ولم يكن يملك سلاحاً، فقام وأخذ حفنة من التراب وقذف بها إلى الدبابة وصاح: «الله أكبر»، فانفجرت الدبابة، ولم يصب هو بشيء.

وكانت هناك قصص عن الطيور التي يرسلها الله لتنبّه المجاهدين بوصول سرب الطائرات السوفياتية، وكلّ ذلك يلقى التصديق من جمهرة الدكاترة والأكاديميين والمتخصصين في الكمبيوتر من أعضاء الجماعة إلى الآن.

وأذكر أنّ أحد الزملاء في الجماعة كان يقود سيارته في الساحل الغربي لمدينة الحدّ، فصدمته سيارة يقودها صبيّ في الخامسة عشرة من عمره، وأدت إلى تدهور سيارة زميلي وهو برفقة زملاء آخرين عدّة مرات، وقد أصيب زميلي

بإصابات بليغة في الرأس استلزم على إثرها إجراء عدّة عمليات في البحرين ومواصلة العلاج بالخارج.

وبالبحث عن أسباب الحادث دار نقاش طويل، شارك فيه زملاء جامعيون وذوو وظائف محترمة، وكان يجلس بينهم المتخصصون في الشريعة، بالإضافة إلى الزملاء الذين كانوا في الحادث، وتوصّلوا لنتيجة من هذا النقاش الطويل أعلنه المتخصصون بأنّ الحادث كان نتيجة نسيان قائد السيارة قراءة دعاء الركوب. ومن يومها لم ينسَ الجميع قراءة هذا الدعاء أثناء ركوبهم دوابّهم وسياراتهم.

وفي رمضان، كنا نعتكف في مسجد بمدينة الحدّ من بعد صلاة التراويح إلى صلاة الفجر، ثم نعود لبيوتنا، وكان أغلب المعتكفين بعد خروجهم من الاعتكاف يحرصون على رؤية الشجر وفتح النوافذ لمتابعة تيار الهواء، والاطلاع على البحر، والنظر في الشمس بعد شروقها، لاعتقادهم بأنّ ليلة القدر لها علامات، ومن علاماتها أنّ الشجر ينقلب رأساً على عقب ويمشي، وأنّ ماء البحر يصبح حلواً، والشمس تصبح بيضاء، ولذلك فإنّ أعضاء الجماعة يحرصون على تحرّي هذه العلامات لكي يتأكدوا أنّهم قد أصابوا ليلة القدر.

وما زلت أذكر أنّ أحد الزملاء يحلف لي بأنّ أداءه لصلاة الفجر في المسجد تفتح له أبواب النجاح والفلاح، وأقسَم لي أنّ إشارات المرور تصبح جميعها خضراء في طريقه الصباحي إذا كان قد صلّى الفجر بالمسجد، وأنها تصبح على عكس ذلك حينما يصليها في البيت أو تفوته فيصليها والشمس في كبد السماء.

أما الدارسون من هذه الجماعة في جامعة الرياض فهم دائماً ما يروون قصّتين شهيرتين:

الأولى: أنّهم كانوا في حافلتهم راجعين من أداء العمرة في مكة المكرّمة، وبينما هم في منتصف الطريق انتبهوا إلى أنّ خزان البنزين فارغ تماماً، فتوقفت الحافلة. وفشلت جميع محاولاتهم لإيقاف أحد المارّة لتزويدهم بالبنزين، وجلسوا هناك قرابة الساعة. فقام أمير الرحلة، ووضع ماء زمزم في خزان البنزين، وطلب من الإخوة في الحافلة الدعاء، ففعل ماء زمزم مفعوله واستطاعت الحافلة أن تسير والجوّ مفعم بالدعاء والتهليل والتكبير إلى أن وصلوا إلى محطة البنزين القادمة.

والثانية: أنّ الإخوة أعضاء الجماعة في الرياض قد عزموا الخروج في رحلة يوم الجمعة، وقد عزم الجميع

على الالتحاق بهذه الرحلة، إلا أنّ أحد الإخوة اعتذر بسبب انشغاله بالمراجعة للامتحان يوم السبت، وقبل أن تخرج المجموعة استخار الله، وخرج معهم وكان في نيته ألا يفوّت الدروس التي تلقى في الرحلة. ولما رجع لم يكن قد راجع أيّ كلمة.

وفي أثناء نومه رأى فيما يرى النائم ورقة الامتحان كاملة بأسئلتها وأجوبتها، وقد صحا من نومه وهو يحفظ كلّ كلمة من أجوبة الامتحان، وفي قاعة الامتحان تفاجأ برؤية الورقة ذاتها التي رآها في المنام، وكانت المفاجأة بأنه حقق العلامة كاملة في ذلك الامتحان ونال تقدير امتياز. كلّ ذلك لأنه لم يفوّت الخروج مع الجماعة، ولأنّ يد الله مع الجماعة.

تجربتي القصيرة مع المشيخة

اكتشفت خلال السنوات التي قضيتها في الجماعات الإسلامية أنّ أسهل أمر يمكن للمرء أن يحقّقه هو أن يصبح شيخاً. فالمشيخة في هذه الجماعات لا تتطلّب كثيراً من التحصيل ولا مزيداً من الذكاء والفطنة، وإنما تتطلّب الرغبة فقط، فمن يرغب في أن يصبح شيخاً سيصبح شيخاً.

بدأ أعضاء الجماعة يسمونني شيخاً على سبيل التندّر يوم التحقت بالمعهد الديني، وكنت حينها في الخامسة عشرة من عمري، وصار كثير من أعضاء الجماعة يستفتوني في العديد من المسائل، وبما أني كنت قارئاً جيداً للكتب الدينية، ومستمعاً ممتازاً للأشرطة الإسلامية، فقد كنت أجيب بحسب ما سمعته وما قرأته.

وقد بدأت الأسئلة تأتيني على سبيل التندّر، وبعدها صار الأعضاء يسألونني جادّين في مسائل كثيرة، وكنت أجيب بحسب معرفتي. ومن يومها قلّدني الأعضاء اسم شيخ لا

على سبيل التندّر وإنما في الحقيقة؛ وقد اضطررت للإجابة على كثير من الأسئلة التي لا أعرفها احتراماً للقب الذي حصلت عليه بالمجان.

وما هي إلا أيام، رجعت بعدها إلى رشدي وصرت أردّ جميع السائلين، سواء عرفت الإجابة أم لم أعرفها، وتخلصت من اللقب سريعاً، وعدت أنا ذلك الطالب الذي دخل المعهد الديني حبّاً في اللغة العربية لا طمعاً في المشيخة.

ولكن اللقب عاد لي بعد سنة بعد أن أخذتُ الإجازة في التجويد والتلاوة، وتمرّست في قراءة القرآن، وحفظت سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة في ستة أشهر متواصلة، وصار القرآن رفيقي الدائم. وجاءنا رمضان، فدعوني لإمامة الناس في المسجد وأنا لم أتجاوز السادسة عشرة من عمري.

كان الجوّ رهيباً جداً، المسجد ممتلئ بالمصلّين، والموعد قد حان لأداء صلاة التراويح، وها هو الإمام الأصلي يقوم فيرفع المايكروفون لأقصى ارتفاع حتى يتواءم مع طولي الفارع. وجاءت اللحظة الحاسمة، وشرعت في القراءة، فزال الارتباك وزالت الرهبة وأنهيت الصلاة، وإذ بجموع المصلين تهنئني على إتمام الصلاة، وكأني فائز بمسابقة

من مسابقات ألعاب القوى، وجميعهم يقولون لي: «جزاك الله خيراً يا شيخ».

إنه اللقب مرّة أخرى، ولكن هذه المرّة لم أتقلّده بسبب إجابتي على أسئلة الناس، وإنما بسبب قراءة القرآن. ألم أخبركم أنّ أسهل أمر يمكن أن ينجزه المرء في الجماعات الإسلامية هو أن يكون شيخاً؟!

مكثت أصلّي بالناس في صلاة التراويح وفي صلاة قيام الليل وفي بعض الصلوات الراتبة، ووجدت أن أكثر ما يعلّق الناس بـ«الشيخ» هو أن يقرأ آيات العذاب وجهنم والقبر بقراءة متأنية، وأن يقوم بإعادتها حتى يشعر باهتزاز أعمدة المسجد من البكاء. ووجدت أنّ اختيار دعاء القنوت مهما كان دقيقاً وعميقاً، لا يخلق الأثر الذي تخلقه أدعية القبر وأسئلة الملكين والحشر والمتساقطين على الصراط وألسنة النيران، ويكفي صوت متهدّج واحد لكي يغرق المسجد جميعه في بكاء مرّ.

وأذكر أني في إحدى «استعراضاتي» في الدعاء بأحد المساجد، وصلت إلى الفصل المثير وهو فصل الموت والقبر والبعث والنار، وفجأة دخلت في موجة سعال عنيفة، فظنّ النّاس أني أبكي، فغرق المسجد في بكاء عنيف مع كلّ سعلة،

وهنأني الناس على إجادتي في تلك الصلاة، وباركوا لي تأثري.

كان الناس يقيسون نجاح «الشيخ» في تراويحه أو في قيامه في مدى قدرته على إبكاء الناس، فالعيون الحمراء بعد الصلاة هي شهادة التميز للشيخ. وأذكر أنّ إمام المسجد الأصلي جاءني مرّة عاتباً لأني كنت قد اخترت جزءاً من أجزاء القرآن لقراءته في صلاة القيام، ولم يحتوِ هذا الجزء على ما يكفي من بكائيات.

المشيخة التي تقلّدتها كانت قد منحتني «وجاهة» بين الناس، فحينما أُقبل على مجلس يقدّمني الناس، ولا ينادونني إلا بلقب «شيخ». وقد ساعدني طولي الفارع والتزامي بلبس الغترة والعقال في المناسبات الرسمية على أن أتقن دور الشيخ. ولكن هذا اللقب كان وبالاً على طفل في عمري.

أحسست أن طفولتي مسروقة وأنّ مراهقتي ناقصة، وأنّه قد حدثت فجوة بيني وبين أقراني في المدرسة والحيّ وحتى في الجماعة؛ فقد كان أقراني يخرجون في طلعات على الدراجات ويزاولون كرة القدم بالأحياء. لقد وجدت أنّ المشيخة تحدّني من ممارسة حقّي كطفل.

وبصفة اللامبالاة، التي يمنحني الله إياها في كثير من الأحيان، استطعت التغلّب على هذه الازدواجية، فمن يراني شيخاً فليرني شيخاً سواء بالغترة والعقال أو بثياب الرياضة، ومن يراني طفلاً فليرني طفلاً حتى وإن أبكيت في ليالي رمضان قارّة بأكملها.

وبعد ستة أعوام قضيتها «شيخاً» في صلوات التراويح والقيام، راجعت نفسي، فوجدت أنّ لقب «شيخ» صار عبئاً عليّ، ولم يعد يعنيني، وأنا الذي أصبحت مداوماً على حضور مسرحيات مسرح الصواري، وأصبحت مدمناً على سماع الأغاني، فأحببت أن أزاول كلّ ما أحبّه وكلّ ما أنا مقتنع بصحته على مرأى من الناس ومسمع، ودون أن أخفيه عن أحد، وهذا ما لا يمكن أن يتقبّله المصلّون، وكانت هذه هي أسباب تركي المشيخة، فلم أعد أقبل عرضاً لصلاة التراويح ولا لصلاة القيام حتى ولو بالحرم المكّي.

أعرف أصحاباً كثيرين كانوا معي في نفس الجماعة أو كانوا معي على مقاعد الدراسة، آثروا حمل لقب «شيخ» ومواصلة المشوار. ربما لأنّ قناعاتهم تختلف عن قناعاتي، وربما لانسجام بين أفكارهم وبين أفكار مَنْ «مشيخوهم»،

وقد صاروا شيوخاً معتبرين لهم أشرطة كثيرة ولهم صولات وجولات في التلفزيون وفي الجوامع والمساجد وفي الأشرطة.

وأعرف منهم من منّ الله عليهم بمصلّين «درجة أولى» من التجار وعليّة القوم، ومن النساء الموسرات، وربما أثّرت البكائيات بهم، فأغدقوا عليهم من الهدايا الكثيرة، ومن الهبات المعتبرة، وفتح لهم ذلك أبواب الترقّي، وأبواب الثراء، وصاروا ضيوفاً دائمين على مجالسهم ودروسهم، يروون لهم «أنّ الإنسان سيدفن في القبر، وسيأتيه ملَكان فيسألانه، فإذا كان سعيداً سيوسّع الله له في قبره، وإن كان شقياً فسيضيق عليه القبر، وسيمتدّ عذابه إلى يوم القيامة»... وكأنها قصة حديثة!

العهد الأبدي

أثناء رجوعنا من رحلة إلى مدنية الرياض، وبرفقتنا ٢٥ منتسباً للجماعة، بعضهم في المرحلة الثانوية وبعضهم في الجامعة، وقليل منهم موظفون بالإضافة إلى قادة الرحلة من كبار أعضاء الجماعة، كان الجوّ مرحاً، وأصحابي يهزجون بالأناشيد، ويتبادلون التعليقات المضحكة، وفجأة سكت الجميع بعد أن عدّل الأمير من جلسته وقابلنا، وسحب المايكروفون، وألقى درساً قصيراً حول الوفاء بالعهد، والإخلاص للجماعة، مستذكراً مواقف الصحابة والتابعين وسِير الأولين ووفائهم بالعهد، ثمّ ذكر ما للجماعة التي ننتمي لها من فضل علينا جميعاً، وما زرعته فينا من أخلاق وطباع وتصرّفات ومهارات، مؤكداً حقها علينا في أن نبقى أوفياء لها لنسدّد الدين الذي وهبتنا إياه.

ثمّ دعا كلّ راكب في الحافلة أن يُقسم بأنّه سيستمر مخلصاً لهذه الجماعة، وسيبقى عضواً بها مدى الحياة، وأن يوصّل مبادئها للناس، وأن يظلّ جندياً من جنودها.

فسادت حالة من الارتباك بفعل المفاجأة، وعُقدت الألسن، وزاغت الأبصار، وأسقط في يد الركاب.

لقد انقلب اللعب إلى جدّ، وكان لسان حال الكثيرين يقول: «لقد التزمنا بهذه الجماعة للبرامج الكثيرة الترفيهية التي تقيمها، ولم نكن ننتظر هذا»، وكسر الصمت سؤال أحد الأعضاء: «لماذا نقسم إذن، نحن مع هذه الجماعة ولن نخذلها»، فأجاب الأمير: «ندعو الجميع للقسم، هذا مبدأ سار عليه الأولون، ونحن ملتزمون به».

أخذ الأول المايكروفون، وأخذ يردّد ما أملاه عليه أمير الرحلة: «أقسم بالله العظيم، أن ألتزم بهذه الجماعة، وأن أظلّ وفياً لها ما حييت، وأن أنقل مبادئها إلى الناس أجمعين، وأن أبقى فيها جندياً من جنودها مخلصاً لدعوتها».

ومرّ المايكروفون عبر الأيدي المرتعشة، والأصوات المتهدجة، إلى أن وصل المايكروفون لي، وقد أحسست أنّ القسم مفروض عليّ، وقد بدت عليّ في تلك الفترة – وأنا في الحادية والعشرين – ملامح التمرّد قليلاً، ورغم تعلّقي بهذه الجماعة إلا أني لا أعلم إن كنت سأستمرّ معها أم لا.

فأخذت المايكروفون، وقرأت القَسم بصوت واثق، لكني ختمته قائلاً: «إلا إن أراني الله غير ذلك»، فالتفت

إليّ أمير الرحلة، قائلاً بأدب مصطنع: «ماذا تقصد من هذه العبارة؟»، ومثلما هو قد أزعجني بفرضه لهذا القسم، فإنني أزعجته بردّي على سؤاله قائلاً: «مثلما سمعت!».

في هذه الجماعة كنا نقضي لحظات مرح رائعة، ولا يمكن أن ننسى البرامج التي كنا نقوم بالتخطيط لها وبتنفيذها، ولقد تعلمنا أموراً كثيرة من تلك اللحظات والأوقات، وخصوصاً في التنظيم والإدارة والتقييم، إلا أنّنا كنّا مجبرين على الالتحاق بما يسمّى «الدورات التربوية»، وهي دورات تقيمها الجماعة للنخب فيها. فالدورة التربوية ليست كالدورات التي تنظمها المؤسسات التدريبية، وإنما هي لقاءات أسبوعية تتطرّق إلى موضوعات شتى، دعوية وتربوية ودينية وعبادية وروحانية، وتتضمن مستويات عدّة، فدورة المستوى الأول هي بمثابة التصفيات في كرة القدم، حيث يتم فيها إلحاق الذين تتوسّم الجماعة فيهم الاستمرارية في الجماعة، وتستمرّ الدورة أشهراً، وإذا ما رأوا في بعض الملتحقين التميز رفعوهم إلى الدورة التالية، وإذا لمسوا من بعضهم عدم الاستجابة اعتذروا لهم وأخرجوهم من الدورة، أما من لم يجدوا فيه تميّزاً ولا تمرّداً فيستمرّ في ذلك المستوى ولا يبارحه.

والفرق بين المستوى والمستوى الذي يليه هو في مدى تشرّب العضو لمبادئ الجماعة، ومدى طاعته وولائه لها، ومدى استعداده للاستجابة لتعليمات قادتها، وحينما يصل المرء إلى الدورات النهائية، يكون قد أصبح لشيخه مثل الجسد الهامد في يد المغسّل.

لقد كانت هذه الدورات بمثابة الاختبار للعضو، فيتمّ فيها بيان إن كان ملتحقاً بالجماعة للاستمتاع والترفيه وحضور البرامج، أو من أجل أن يكون عضواً فاعلاً وعنصراً مطبّقاً للوائح وأنظمة الجماعة.

وأذكر أننا في هذه الدورات نأخذ مفاهيم دعوية كثيرة، كالجندية والعمل بروح الجماعة وغيرها، ولما وصلنا إلى مفهوم الطاعة، جرى نقاش حول هذا المفهوم، وقد اعترض أكثر من عضو على بعض تفاصيل هذا المفهوم التي تجعل من العضو مسيّراً لا مخيّراً، في حين أن كلّ عمل يقوم به العضو لا بدّ أن يقوم به عن قناعة، فأجاب المسؤول عن الدورة بقوله تعالى: «ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم»، وأضاف: نحن نبلّغ دعوة الله التي وصلتنا عن طريق الرسول، ومطلوب من الدعاة أن يستجيبوا لتعليمات أمرائهم.

لقد درجتُ في هذه الدورات مدّة تسع سنوات تقريباً، وتحوّلتُ فيها من عضو مغلوب على أمره إلى عضو مشاغب متسائل، وللأمانة فإنّ الجماعة احتملت مني هذا التمرّد، ربما لأدبي في طرح مشاغباتي، وربما لظنّهم بأنّ هذه المشاغبة ستفضي إلى تسليم وقناعة؛ ولكنّني كنت قد قرّرت أن أعتزل هذه الدورات، وأن يظلّ عقلي وفكري وقلبي طليقين.

وأحسب أنّ هذا النمط الإداري والقيادي هو المتسبب في القرارات التي تتخذها الجماعة، والتي يرى المراقبون والمتعاطفون مع الجماعة بأنها لا تتواءم مع المستوى التعليمي والأكاديمي والإداري لأعضائها، إذ إن النمط الإداري والقيادي الذي التزمت به الجماعة، يفرض وجود سلطة عليا للجماعة (مكوّنة من مجموعة قليلة من الأفراد) هي التي تتخذ القرارات، أما بقية أعضاء الجماعة فإنهم منفذّون، لأنّ كثيراً منهم كان قد أقسم على الالتزام بهذه الجماعة، وقد تعلّم منذ صغره بأنّ السلطة العليا للجماعة إذا اتخذت قراراً فليس لـ«المؤمنين» من أعضاء الجماعة الخيرة من أمرهم، وليس عليهم سوى السمع والطاعة.

وهذه الطاعة المفروضة على الأعضاء لا تقتصر على القرارات الكبرى فقط، بل إنّ هناك تدخلاً من قياديي الجماعة حتى في أبسط الأمور، التي يكون ظاهرها التخيير، ولكن باطنها يؤكد أنّها أوامر. حيث أنّه لا ينبغي

للعضو المنضم للدورة التدريبية أن يختار حتى زوجته من غير أن يخبر مسؤول الدورة عمّن تكون هذه البنت ومن هم أهلها. ويكون العضو صاحب حظوة إن تزوّج بنتاً اختارها له المسؤولون في الجماعة، ولا بدّ أن تكون طبعاً من العضوات الفاضلات في الجماعة، وهذا ما يفسّر كون أغلب قياديي هذه الجماعة متزوجين من عضوات في الجماعة نفسها، ربما لضمان استمرار الولاء.

ولقد أراد قياديو الجماعة أن يخلقوا لهم وللأعضاء مجتمعاً خاصّاً، يضعون له قوانينه وأطره وأنظمته، ويحدّدون فيه علاقات الأفراد ببعضهم وعلاقتهم بقيادتهم، وأن يغلقوا جميع الأبواب والنوافذ المؤدية المفضية إلى المجتمعات الأخرى والأفكار المغايرة والتوجهات المختلفة.

ولعلّ الزواج هو أوّل طريق نحو تكوين هذا المجتمع وإحكام إغلاقه، فالأعضاء يدفعون (ولا يلزمون) إلى الزواج من العضوات الفاضلات من الجماعة، ليكون أولادهم أعضاءً صغاراً في هذه الجماعة، وبذلك تضمن الجماعة أن عضويها (الرجل والمرأة) سيدفع كلّ منهما الآخر للالتزام بالجماعة وعدم التخلّي عنها، بالإضافة إلى كسب أعضاء جدد يلتحقون بالجماعة بدافع البرّ بالوالدين

عضوَي الجماعة، ويأخذون مبادئها كنصائح أبوية قبل أن تكون تعليمات دعوية.

أضف إلى ذلك أنّ الدورات التربوية التي يتمّ تنظيمها كما أسلفنا للنخبة تدعو دائماً (من حيث لا تدري ربما) إلى التقوقع والتشرذم، رغم خطابها الظاهر بأنها مع الانفتاح والاحتكاك بكلّ فصائل المجتمع، وبذلك يصبح العضو متغرّباً عن المجتمع وعن فئاته، ولا يستطيع تعميق الاتصال بهم، لأنّ الجماعة قد حشت ذهنه (كحال أي جماعة دينية) بأنّها هي الصواب وأنّ غيرها خطأ، وأنّ احتكاكه بغيره من فئات المجتمع سيبعده عن صواب الجماعة، وسيدفعه من غير شكّ إلى الخطأ.

إنّ المجتمع في نظر الجماعة (كغيرها من الجماعات الدينية) غابة مفزعة، ينبغي على العضو إذا أُجبر على الاحتكاك بها أن يأخذ حذره، فتكون علاقته بالمجتمع علاقة سطحية بقدر الحاجة، وبمجرّد انتهاء حاجته الصغيرة لا بدّ أن يعود إلى أحضان الجماعة، ولذلك تشعر وكأنّ الموظفين من أعضاء الجماعة غرباء في أماكن عملهم، وميّالون إلى الانعزال، ويبدو عليهم الحذر والخوف في تعاملهم مع غيرهم، وتعلو وجوههم أثناء تعاملهم في زملائهم من

غير أعضاء الجماعة ابتسامة مصطنعة تشي بكثير من التوجّس.

ومن أجل هذا الأمر، تجد أنّ أعضاء الجماعة يميلون دائماً إلى التوظّف في أماكن تواجد الأعضاء الآخرين، فتجدهم مجموعات مجموعات في أماكن العمل، ولا يهمّ إن كان الأعضاء في الجماعة أصدقاء، فيكفي أنهم أعضاء فيها ليحدث الانسجام والارتياح؛ فربما كان العضو من منطقة الرفاع والآخر من مدينة المحرّق، ولم يلتقيا مع بعضهم من قبل، ولكن بمجرّد ما يعلمان بأنهما من نفس الجماعة تتنزل عليهما السكينة وتغشاهما الرحمة.

وبسبب التقوقع هذا والانعزال تتبادر إلى أذهان أعضاء الجماعة في أماكن العمل وجود مؤامرات تحاك ضدّهم من الموظفين الآخرين، مرّة يبرّرون المؤامرة باختلافهم عن الآخرين، ومرّة بأنّ الموظفين يكرهون المتدينين، ولا يعلم هؤلاء أنّ أكثر المؤامرات التي يظنون أنها تحاك ضدّهم ناتجة عن عدم ارتياح الموظفين الباقين من انغلاق الجماعة وتحزّبها.

ومن الطبيعي أن تظهر بعد ذلك الإشاعات من زملاء العمل بوجود محسوبية لدى أعضاء الجماعة (وربما لا تكون

تلك موجودة)، وبتقرب عضو الجماعة المسؤول من الأعضاء الآخرين في الوظائف، وأمام ردّة الفعل هذه من الزملاء يتأكد أعضاء الجماعة من وجود مؤامرة لإقصائهم من موقعهم.

تقوقع الجماعة هذا لا يندرج فقط على أماكن العمل، بل حتى في القراءات مثلاً، فأعضاء الجماعة لا يقرأون في الصحف إلا أعمدة الصحافيين أعضاء الجماعة أو المناصرين والميّالين لها، أما باقي الكتّاب، فإنّهم مصنّفون من قبل قياديي الجماعة بتصنيفات ثابتة: هذا علماني، وهذا شيوعي، وهذا ماركسي، وهذا طائفي. وحتى لو قام أحد أعضاء الجماعة بقراءة العمود للصحافيين غير أعضاء الجماعة فإنه يقرأ لهم وهو يحمل هذه الأحكام المسبقة، ويطلع على تفاصيل ما كُتب بعين المرتاب.

ولذلك فإنّ الجماعة استطاعت أن تصنع لها مجتمعاً وسط المجتمع، ولا يجد العضو حاجة إلى الاحتكاك بالمجتمع الأصلي، فيكفي أن يتصل بهذا المجتمع النظيف لكي يستطيع مواصلة حياته بالشكل الذي رسمه قياديو الجماعة.

يبدأ العضو في دخول هذا المجتمع الصغير في المدرسة، إذ تقوم الجماعة بإرشاده بألا يسير إلا مع الطلاب أعضاء

الجماعة، وحينما يدخل الجامعة، فإنّ الجماعة توفّر له الصحبة الطيّبة فيها، بحيث لا يحتكّ بالجماعات الأخرى، وحينما يريد أن يعمل تسعى الجماعة لأن يحصل على وظيفة في الأماكن التي يتواجد فيها أكبر قدر من أعضائها، وحتى إن أراد أن يقرأ صحيفة، فإنّ أعضاء الجماعة الصحافيين وكتّاب الأعمدة يستقبلونه في الصحيفة بصورهم المتصدرة لأعمدتهم وبابتسامة عريضة، وكأنهم يقولون له: «ما لك من مفرّ».

وبذلك يعيش العضو وهو مغترب عن مجتمعه، ليس لديه تصوّر عنه سوى التصوّر الذي رسمته الجماعة له. حتى أنّ صحافياً مشهوراً في البحرين حدّثني بأنه كان يتبادل أطراف الحديث مع أحد قياديي الجماعة، وأثناء حديثهم ذكر الصحافي عن انتشار الخيانة الزوجية في المجتمع، فأصابت الدهشة صاحبنا القيادي، وتساءل: هل يمكن للزوجة أن تخون زوجها في مجتمع مثل البحرين؟!

وحتى عندما قرّرت الجماعة الانفتاح في أواخر التسعينات من القرن الماضي، وعقدت لذلك مؤتمراً كبيراً، وكانت الرغبة كبيرة من الأعضاء لذلك، ولكنّ بسبب الخوف والتوجس لدى الجماعة من فئات المجتمع لم تتقدّم الجماعة

سوى بخطوات خجولة، وربما قد رجعت في السنوات الأخيرة إلى عزلتها أو أشدّ.

وهذه العزلة تلقي بظلالها على دخول أعضاء الجماعة في النشاط الطلابي بجامعة البحرين، وفي أنشطة الجمعيات الشبابية على مستوى البحرين، إذ أنّ المشاركين من أعضاء الجماعة يشاركون في هذه الأنشطة وكأنهم قد وضعوا أنفسهم في كبسولة مضادّة للفيروسات، فهم يدخلون في الفعالية معاً، ويخرجون لأداء الصلاة في وسط النشاط معاً، ويغادرون الفعالية معاً، وسط استغراب من فئات المجتمع الأخرى، و«كأنك يا زيد ما غزيت».

المسار الاداري والمسار الفكري

وبسبب هذا الاغتراب، نرى أنّ الجماعة متخلّفة على صعيد الفكر الديني، رغم أنّها متطوّرة (مقارنة ببقية الجماعات الدينية) على الصعيد الإداري والتنظيمي، ولكنّ قراراتها تتأثّر بفعل القناعات الدينية التي تؤمن بها وتنطلق منها.

هذا التخلّف الفكري الديني يعود – كما أسلفنا – إلى حالة الاغتراب التي تعيشها الجماعة، فأعضاؤها يتعاملون مع الأفكار الحديثة، التي تحاول تجديد الخطاب الديني وتتطلّع إلى تطهير الفكر الديني مما لحق به من الخرافة والجمود والتحجّر، كما تتعامل مع الفايروسات. وبذلك نجد أنّ المسار الإداري والتنظيمي للجماعة متقدّم جداً على المسار الفكري الديني.

أذكر أنّني كنت مع الجماعة حينما أصدر نصر حامد أبو زيد كتابه «نقد الخطاب الديني»، وحدثت البلبلة التي انتهت بالتفريق بينه وبين زوجته، وقد كان أعضاء

الجماعة يتابعون هذه القضية من منظار الأعضاء في الجماعة الأمّ عبر ما يكتبونه في مجلاتهم وأعمدتهم الصحافية، وقد هللوا واستبشروا بالخبر، وكانوا يتناقلون الحكاية في دروسهم وجلساتهم، ويقدحون في أبو زيد من غير أن يكلّفوا أنفسهم عناء قراءة سطر واحد.

وهذا الأمر يجعلني أتأكد بأنّ داخل كلّ عضو حسن المظهر حليق اللحية (أحياناً) يقبع سلفيّ جامد، ولا يشفع للعضو أن يكون أكاديمياً أو إدارياً محنكاً أو تقنياً بارعاً، فعندما يُطرح طرح جديد في الفكر الديني من كاتب ليس عضواً في الجماعة، فإنّ ذلك السلفيّ يظهر ليقصم ظهر كلّ فكرة جديدة، وليعلن محاربتها ووأدها قبل أن تنتشر بين الناس، وينبّه الأعضاء الآخرين إلى خطرها.

السبب الآخر وراء التخلف الفكري والديني للجماعة، هو أنّ مرجعيتهم الدينية تكون في الغالب إلى أعضاء الجماعة الذين درسوا في كليات الشريعة في الخليج، فتشرّبوا بالفكر الديني السلفي الذي يدعو إلى الجمود وإلى محاربة كلّ فكرة جديدة في إطار مفهوم سدّ الذرائع، وأخذ الحيطة.

أما الأحكام الدينية التي تستند إليها الجماعة، ويلمس الناس فيها شيئاً من المرونة والتبسيط والبعد عن التشدّد

فتعود أغلبها إلى المشايخ أعضاء الجماعة الأم الذين درسوا في الأزهر في الغالب.

وأذكر هنا جملة من المواقف التي تبيّن مدى التخلّف الفكري الديني للجماعة، فقد كنت على صلة بعضو من الجماعة، وكان يداوم على حلق لحيته كلّ يوم، وفي أحد الأيام، أخبرني عن حرصه على تطبيق السنن النبويّة، وعرّج على موضوع اللحية، وأعلن لي عن أسفه لاضطراره لحلق لحيته كلّ يوم، لأنّ كثيراً من الناس ينفرون من دعوة الله حينما يسمعونها من شخص ملتحٍ، وأكّد لي أنّه بمجرّد زوال هذا التصوّر عند الناس سيقوم بإطلاق لحيته[1].

والغريب أنّ زوجة هذا العضو، وهي عضو أيضاً في الجماعة، تلبس النقاب، ولا أدري لماذا لم تقم حرمه المصون بتطبيق قاعدته بالاستغناء عن النقاب، في الوقت الذي تنفر الكثيرات من سماع دعوة الله من امرأة منقبة.

وأذكر أنّ الأعضاء في كثير من الرحلات يقومون بالتقاذف فيما بينهم بقشور البرتقال أو البطيخ أو نوى

---

[1] وفعلاً قام الأخ المحترم بإطلاق لحيته بعد أن زال حظر الجماعة على اللحية، وأصبحت علامة بارزة لأعضائها، وبذلك تخلّص صاحبنا من اقترافه خطيئة حلق لحيته كلّ يوم، ولله الأمر من قبل ومن بعد!

التمر، ويفسرون ذلك بأنّ الصحابة تقاذفوا فيما بينهم بالقشور في أحد أسفارهم، معتقدين أنهم بذلك يطبقون سنة من سن النبي صلى الله عليه وسلم.

وما زلت أذكر موقفاً يؤكد مدى تأثير الفكر الديني للجماعة على القرارات الإدارية، فقد أسست الجماعة فرقة للأناشيد تكون بديلة لـ«مجتمع الجماعة» عن الأغاني، وقد كانت الفرقة متحمّسة لنشر الأناشيد في كلّ بيت، والقضاء على ما تبقّى من فلول أشرطة الأغاني فيها، وكانت تبحث بكلّ جدّ عن الكلمات «الإسلامية»، وتقوم بتلحينها، وتقوم بعمل البروفات المضنية لهذه الأناشيد على إيقاع الدفوف.

ولقد حاولت الفرقة أكثر من مرّة أن تقيم حفلاتها في مقرّ الجماعة مستخدمة الدفوف، إلا أنّها كانت تجد معارضة قوية من قياديي الجماعة، ومن «رجال الدين» فيها، لاعتقاد بعضهم بعدم جواز استخدام الدفوف، ولاعتقاد البعض الآخر بأنّ استخدام الأعضاء للدفوف يؤثر على الصورة المضيئة المرتسمة عن الجماعة. وبذلك لم تتطوّر هذه الفرقة، ولم تجد الإقبال عليها سنوات طويلة.

أما النساء عضوات الجماعة، فإنّ تأثير التخلف الفكري الديني للجماعة واضح بشدة عليهنّ، ورغم أنّ أكثر

العضوات من الجامعيات الدارسات في تخصصات شتى، فإنّ موضوع التنمص -(ترقيق شعر الحاجبين) تفرد له الكثير من المساحة في أحاديثهنّ ودروسهنّ وتوجيهاتهنّ، وما زلن يردّدن أنّ المرأة التي تحفّ شعر حواجبها تحقّ عليها اللعنة.

وما زالت عضوات الجماعة بعيدات عن ميدان الأناشيد مثلاً، بحجّة أنّ صوت المرأة عورة، وبعيدات عن التمثيل على المسرح، بحجّة عدم جواز اختلاطها بالرجال، بل إنّ المرأة لا يمكن لها وهي تؤدي التمثيل في مسارح النساء أن تضع على رأسها «باروكة» بحجة أنّ لعنة الله تحيق بالواصلة والمستوصلة.

وإلى الآن طبعاً ليس هناك اتصال مباشر بين الأعضاء والعضوات، فمجلس إدارة هذه الجماعة ما زال خلواً من أي امرأة، رغم أنّ ثلثي أعضاء الجماعة الملتزمين بدفع الاشتراكات هم من النساء، وكلّ ذلك درءاً للاختلاط. كما أنّ الأعضاء والعضوات لا يلتقون في الملتقيات ولا يجلسون جنباً إلى جنب في الدورات التدريبية أو ورش العمل، رغم أنّ عدداً لا بأس به من العضوات يقمن بذلك في أماكن عملهنّ ولا يجدن حرجاً فيه.

والغريب في الأمر أنّ هذه الجماعة هي امتداد لحركات التجديد الديني الذي بدأها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، ووجدتْ امتدادها في الغزالي والقرضاوي، وبدلاً من أن تبدأ الجماعة مما انتهى إليه هؤلاء، وتفتح آفاق التجديد والانطلاق والتحرّر، نجدها تعود إلى المربّع الأول، بل إنها تتجه إلى نقل سكّة الحركة إلى سكة الفكر السلفي.

إنّ حركة التجديد الديني يجب أن تنطلق إلى الأمام، وألا تلتفت إلى الخلف، وإذا كانت الجماعة تحمل مسؤولية نهضة المجتمع ووضعه على سكّة التقدّم، فينبغي لها أن تتخلّص من غربتها وأن تتفتح على الآخر، وأن تستفيد من كلّ الأفكار.

الأيام.. بوابتي إلى العالم

بعد سنوات من اغترابي في المدرسة والجامعة انفتحت لي كوّة نحو العالم. فبعد أن تخرّجت من جامعة البحرين بتخصص اللغة العربية، ولم تجد لي وزارة التربية والتعليم وظيفة تعليمية عندها، وجدت نفسي مضطراً للعمل في جريدة الأيام صحافياً في الأخبار المحلّية.

كان اسم الأيام كافياً لإزعاج «مجتمع الجماعة»، أليست الأيام هي تلك الجريدة التي تضمّ بين جنباتها الصحافي «الشيوعي» محمد فاضل؟ أليست تلك الجريدة التي يكتب فيها «العلماني» أحمد جمعة؟ أليس تلك الجريدة التي تدافع عن السياحة في البحرين وتهاجم كلّ دعوة دينية لإقفال الخمّارات في البلاد؟

دخلتُ الأيام بلحية مبعثرة على الخدّين الطريين، وبثوب ليس طويلاً، وبمصحف في الجيب أُخرجه في أوقات الفراغ للقراءة. وقبل أن أستلم العمل وجدت نفسي محاطاً بأربع بنات، دفعهنّ الفضول لمعرفة القادم الجديد لقاعة التحرير

(وقد اكتشفت مؤخراً أنّ هذا دأبهنّ مع كلّ قادم جديد)، ولم أجد مناصاً من أن أجيب على كلّ أسئلتهنّ وتحمّل تضاحكهنّ وتمازحهنّ.

وكانت أول مهمة أُسندت لي هي تغطية افتتاح المعرض السوري في مركز أرض المعارض، وكنت مجبَراً على مزاحمة الصحافيات وإجراء مقابلات مع المسؤولات والبائعات وزائرات المعرض؛ وقد تحدّثت مع البنات في تلك المهمّة أكثر مما تحدثت مع بنات طيلة حياتي، ورجعت إلى الجريدة منهَكاً من الحرّ والزحمة ومن هذا المجتمع الذي ينبغي أن أتعوّد عليه.

أخذت أوراقي وهربت من قاعة التحرير إلى غرفة الأرشيف حيث يعمل ابن خالتي، أريد أن أجلس إلى جانب رجل يا جماعة! وجلست على مكتب صغير، ووضعت أوراقي وشرعت أكتب الخبر المطوّل. وفي هذه الأثناء دخلت عليّ ثلاث بنات متدربات من جريدة Bahrain Tribune (وهي الجريدة الإنكليزية التي تصدرها مؤسسة الأيام للصحافة والنشر)، ويظهر أنهنّ من خريجات المدارس الخاصة، ولفتَّ انتباههنّ بمظهري الإسلامي وبحيائي الواضح، فأرادت إحداهنّ الاستظراف ربما، فاقتربت منّي وجلست

على الطاولة التي أكتب عليها، وعلى الأوراق مباشرة، ولم يكن بين يدي وظهرها سوى عشرة سنتيمترات، وصرت لا أرى من الحجرة إلى ظهرها، ولم تُبالِ بعتاب زميلتيها من هذا السلوك، وجلستُ قرابة العشرين دقيقة، كانت كافية لأن تعلن لي أنني دخلت العالم الحقيقي. وها أنذا قد دخلت العالم بفضل عجيزة امرأة!

أنقذني صوت الأذان، أريد أن أذهب إلى المسجد لكي أعود إلى مجتمعي، لا توجد في المسجد - لحسن الحظّ - نساء. هرعت إلى المسجد، وتلفتّ فلم أجد إلا القليل من زملائي فيه، ولم أتعجّب، فما سمعته عن جريدة الأيام قبل الالتحاق بها يكفي لعدم اندهاشي حتى لو وجدتهم يسجدون للأصنام بمكاتبهم.

كان الخبر الذي كتبته عن المعرض السوري بوابة العبور للصحافة، فرئيس القسم أعجبَته كتابتي فأسند لي مهمات أخرى. وكان الأمر شديد الغرابة بالنسبة لي، فلقد كنت أحمل تصوّراً - كغيري من أعضاء الجماعة - بأنّ جريدة الأيام تتعمّد التضييق على الملتزمين وأعضاء الجماعات الإسلامية. وما هي إلا أيام ودخل علينا شهر رمضان. استغربت حينما وجدت عدداً من زملائي يخرجون ويدخلون

إلى قاعة التحرير وتفوح من أفواههم رائحة طرية للسجائر، ووجدت بعضهم يتندر على الآخر بتناوله الفطور في المكتب في نهار رمضان، ووجدت بعضهم يتحدّث عن زجاجات الخمر في بيته كما يتحدّث عن زجاجات الكوكاكولا!

وفي أحد الأيام دعاني رئيس القسم وأخبرني بأنّ رئيس التحرير قد أسند لي مهمة كتابة تقرير مطوّل حول المؤتمر العالمي للخيول العربية، وأنّ المؤتمر سيبدأ بعرض للخيول في قصر الصافرية بحضور ولي العهد (كان حينها جلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة هو ولي العهد)، وأبلغني أن أصطحب في سيارتي صحافية من جريدة Bahrain Tribune (هذه الجريدة مرّة ثانية)، ولمّا رأيتها، وكانت عليها علامات الرضا لهذه الصحبة، أحسست باستحالة إتمام المهمة، فقد كانت شابّة وجميلة ومثيرة ومتحرّرة في ملابسها، وكنت أشعر أنها متشرّبة بالثقافة الأجنبية إلى حدّ قبولها الذهاب معي حتى على دراجة نارية، فاختلقت عذراً ومضيت إلى المهمة لوحدي. وفي قصر الصافرية جلست الصحافية إلى جانبي لا يفصل بيني وبينها سوى مسافة إصبعين (من أصابعها طبعاً) ولم يكن بمقدوري أن أبتعد عنها لأنّ مكان الجلوس كان محدوداً، وكانت فتحة

قميصها تكفي لإدخال جمل، وفي وضعي هذا أحسست بإحساس الواقع في الإثم، وتساءلت في نفسي: كيف كان سيكون حالي لو كانت هذه الحسناء المثيرة معي في السيارة، هل كنت سأتذكر طريق قصر الصافرية؟!

في رمضان أسند لي رئيس القسم مهمة زيارة المجالس الرمضانية بالليل، فزرت مجلس علي راشد الأمين ومجلس علي المسلم ومجلس علي بن حجي ومجلس بوحجي، والتقيت مع صنوف من الناس، وبدأت أرى مجتمعاً أكبر من المجتمع الذي كنت أعيش فيه. ولم يبدُ هذا المجتمع خطيراً كما تمّ تصويره لي في جماعتي، فحتى المفطرون في نهار رمضان، وشاربو الخمر في ليالي الإجازات يحملون بين أضلعهم قلوباً طاهرة، وابتسامات صادقة، وساندوني في الكثير من المواقف، وكانوا يدعونني بإلحاح لزيارتهم في بيوتهم وبحضور مناسباتهم الخاصة، وكنت ألقى ترحيباً كبيراً حينما أزورهم، ولم تكن لحيتي المبعثرة حاجزاً بينهم وبيني.

ومع عيون زرقاء – كما أسلفت – كان لقائي مع الجنس الآخر. إنّ الإعجاب بالمرأة يستطيع أن يطوي للرجل المسافات، فلقد استطعت من خلال هذه المرأة أن أتخطى

حاجز التديّن، وأن أخترق قوانين «مجتمع الجماعة»، وأن أدخل إلى عالم المظهر والجمال والرقة؛ ووجدت نفسي أتعلّم من تينك العينين ما لم تستطع الأشرطة الدينية الكثيرة التي سمعتها أن تعلمني.

لقد علمتني تلك الأشرطة كيف أحذر الموت وعذاب جهنّم، أما تلك العينان فعلمتاني كيف أستقبل الحياة وكيف أتمتع بجمالها. فشتان ما بين الاثنين.

مكّنتني تينك العينان الزرقاوان من أن أستدرك ما فاتني من معارف عن المرأة: عرفت كيف تتكلّم، وكيف تحسّ، وكيف تقسو، وكيف تعتب، وكيف تعود من زعلها، وشرّعت لي أبواباً كثيرة لم يكن بمقدوري أن أشرّعها لو لم ألتقِ بتلك العينين.

لم أعد أذكر تلك القصص التي تتحدّث عن رجال يصيبهم حادث في الشارع، وبدل أن ينطقوا بالشهادتين يردّدون: «قلبي معك يا مشغل البال ملتاع». فمن خلال تلك العينين تفتحت لي شرفة فيروز، واكتشفت كاظم الساهر، وتدفقت بي جداول ماجدة الرومي، وتعرّفت على جوليا بطرس، واستهديت إلى عيون عبد الحليم الجريئة.

أصبحت مغرماً بأشعار نزار قباني، فاقتنيت جميع

دواوينه، ودخلت في عوالم خالد الشيخ، ولأوّل مرة صرت أكتب شعر الغزل. لم أقضِ في جريدة الأيام سوى عام واحد، ولكنه كان كافياً ليعرّفني إلى العالم، فلم تكن جريدة الأيام بالنسبة لي مجرّد جريدة، إنها بوابتي إلى العالم.

انقضاء عزلتي عن الزمان والمكان

قبل أن أعمل في جريدة الأيام كنت أحمل تصوّراً مخيفاً عن عدد من الصحافيين والكتاب في الجريدة، وعلى رأسهم الصحافي المخضرم محمد فاضل. سمعت عنه من جماعتي كثيراً من الأوصاف المتناقضة أحياناً، مرّة وصفوه بالشيوعي، ومرة أخرى بالعلماني، ومرّة أخبروني بأن آراءه فيها شيء من الإلحاد. ولقد كنت أضع رهبتي من جوّ الجريدة في كفّة، ورهبتي من محمد فاضل في كفّة أخرى، وكانت كفّة محمد فاضل ترجح في كثير من الأحيان.

التقيته يوم رجعت من مهمتي في تغطية مؤتمر الخيول، ولقد كانت مصيبة تجرّ مصيبة، فبعد انتهائي من مصيبة الصحافية الشابّة الحسناء، رجعت إلى الجريدة لأجد محمد فاضل في انتظاري، ليرى الخبر الذي كتبته. يا الله... لأوّل مرّة أرى ملحداً ماثلاً أمامي. إنّ كلامه يشبه كلامنا، ولهجته الحالاوية (نسبة إلى منطقة الحالة بالمحرّق) مألوفة بالنسبة لي، وكان وقاره ممتزجاً بخفّة دم

وتعليقات ساخرة وذكية، فزالت رهبتي من محمد فاضل وحلّ محلّها الإعجاب.

مرّة من المرّات صادفني في ممر الجريدة، ووقف بجانبي متصنّعاً الجدّية التي صرت لاحقاً أعرف أنها بداية مزحة، وقال وهو يشير إلى ثوبي غير الطويل: «فواز... الجلباب قصير قليلاً». ورغم أنّ ثوبي لم يكن قصيراً ولكن لم يكن بطول الثياب التي يلبسها البحرينيون. وقد لفت انتباهي استخدامه لكلمة «جلباب»، وكانت مؤثرة بي ومثيرة لتساؤلات كثيرة خطرت ببالي. فلقد اعتدت من محمد فاضل أن يستخدم كلمات قليلة ولكنها مركّزة، إنه لم يقصد الثوب فحسب، بل كان يقصد حالة الاغتراب التي أعيشها عن زمني وعن مجتمعي، وهي التي جعلتني أُلزم الخياط بتقصير الثوب قليلاً. لقد كان يكلّمني بلغة الزمن الذي وقفتْ ساعتي عنده، بلغة العصر الذي مضى عليه قرون طوال، وما زلنا متمسكين حتى بطول ثياب أصحابه.

سمعت تعليقات كثيرة حول طول ثوبي، وكانت تلك التعليقات تزيدني إصراراً على التمسك بهذا الطول، لاعتقادي بأنّ ما أسفل الكعبين في النار. ولكن لا أدري لماذا كلمة الجلباب التي استخدمها محمد فاضل دفعتني لأن

أطيل ثوبي، وأن أتخلص من تلك الجلابيب القصيرة التي كنت ألبسها.

بعد ذلك التقيته مرّة أخرى في مكتبه، وكانت الجريدة قد نشرت لي تقريراً حول مخيمات الجماعات الدينية في البحرين، وقد رفعت من شأن مخيّم جماعتي كثيراً، وانتقدت بشدّة مخيمات جماعة السلفيين التي كانت ترتّب للمشاركين فيها دورات في التوحيد والفقه وشروح الأحاديث، فأثنى على أسلوبي في الكتابة، لكنّه قال لي بكلمة مختصرة وموجزة: «إذا أردت أن تكون صحافياً لا بدّ أن تتخلّى عن أي انتماء قبل أن تكتب».

كانت كلمات قليلة مثلما هي عادة محمد فاضل، ولكنها كانت كلمات مؤثرة فعلاً، التزمت بها (حسب ما أعتقد) في جميع كتاباتي الصحافية ودعوت زملائي الصحافيين إلى الالتزام بها. وتعجبت كثيراً من قيام هذا «الملحد الشيوعي العلماني» بالدفاع عن جماعة سلفية، ولقد عرفت الإجابة بعد سنوات قضيتها في الصحافة... إنها المهنيّة.

مِن محمد فاضل بدأت أتعامل مع الآخرين وأقيّمهم لا بحسب علاقتهم بربّهم، فتلك العلاقة لا شأن لي بها، ولكني كنت أتعامل معهم وأقيّمهم بحسب علاقتهم بي وبحسب

علاقتهم بالمؤسسة التي يعملون بها، منتزعاً أيّ تصوّر سابق عنهم، وأية أحكام مسبقة صدرت عليهم من أي جماعة أو شخص.

وذلك ما دعاني لاحقاً إلى البدء في قراءة كتب نصر حامد أبو زيد والصادق النيهوم وعبد الله القصيمي وصادق جلال العظم وعلي الوردي وغيرهم. فكلّ هؤلاء نالوا من الناس ما نالوه من أوصاف الكفر والزندقة والارتداد، ولكني قرأت كتبهم ولم أصدر أحكاماً عليهم بل خلصت بانطباعات عما كتبوا. وذلك هو الفرق.

بعد عام على عملي في الأخبار المحلية بجريدة الأيام اضطررت إلى ترك الصحافة بعد حصولي على وظيفة حكومية، مدرّساً للغة العربية بمدرسة الهداية الخليفية للبنين. ولقد وجدت صعوبة بالغة في قبول الأمر، فقد أحببت جريدة الأيام، وأحببت العالم الذي صرت أتعرّف عليه من خلالها، فخفت أن أذهب إلى التدريس فيغيب عنّي ذلك العالم.

وبعد انتظامي في المدرسة، أحسست بانقباض وأنا أجلس في غرفة المدرّسين؛ لم تكن في الغرفة تلك البنت صاحبة العينين الزرقاوين، ولم يكن هناك ذلك الصحافي الذي لا

يطفئ السيكارة إلا بعد أن يشعل الأخرى. رجعت إلى المجتمع الذي خرجت منه، فقد كان جميع المعلمين من المحافظين. أحدهم يقرأ القرآن بعد كلّ حصة، والثاني يحتضن سجادة الصلاة خشية أن تفرّ. ورغم أنها كانت غرفة لمدرسي اللغة العربية ولكن الأحاديث التي كانت تدور في الغرفة كان أغلبها عن الدين والمعجزات وانتشار المعاصي والاستعداد للآخرة.

ووجدت الفرَج في صوت الأستاذ عيسى الشايجي، وكان يومها مدير تحرير جريدة الأيام، وهو يدعوني أن أمرّ عليه مساء، وذهبت إليه باكراً، فذكر لي أنّ الجريدة لا تريد أن تخسر قلمي، وعرض عليّ أن أكون مشرفاً على الصفحة الإسلامية الأسبوعية بجريدة الأيام، وأن ألتزم بكتابة عمود في الصفحة، بالإضافة إلى تحرير موضوعات الصفحتين بالكامل. وسألني سؤالاً غريباً: «هل لديك ميول دينية؟»، وكأنما الدين أصبح هواية أو موهبة، ولكن هذا السؤال لم يعد غريباً عندي بعد ذلك، إذ اكتشفت أنّ الدين أصبح هواية عند البعض وأنه أصبح موهبة عند البعض الآخر!

سألته أن يعطيني يومين لأفكر في الموضوع، فباستغنائي عن جلبابي غير الطويل، وارتباطي بالعالم الذي تعرفت

عليه في جريدة الأيام، كنت راغباً في أن أبتعد عن هذا الجوّ، وأن أظلّ أحتكّ بـ«الكائنات الجديدة» التي تعرّفت عليها مؤخراً، وأن أكتشف المزيد عن «العالم الجديد». ولكني في الوقت نفسه كنت محتاجاً إلى رابطة تربطني بهذا العالم، وبالجريدة التي أحببتها، فأعلنت موافقتي ورغبتي في أن أخوض التجربة الجديدة مشرفاً للصفحة الإسلامية.

تجربتي في الصفحة الإسلامية

في الصفحة الإسلامية بجريدة الأيام وجدت فضاءً ممتدّاً أمامي. صفحتان كاملتان ينبغي أن أضع حدودهما وأكوّن تقسيماتهما وأخلق اتجاهاتهما. صفحتان كاملتان ينبغي أن أديرهما وأنا خارج الجريدة، وأن أكون في سباق مع الزمن لكي أنجزهما وأسلمهما. شعرت بمسؤولية كبيرة، خصوصاً أنّ مهمّة إدارة الصفحة أُسندت لي في العام ١٩٩٩م، أي عندما لم يكن في البحرين سوى جريدتين، وسوى صفحتين إسلاميتين، ولم يكن إسناد صفحة متخصصة إلى شابّ في الثالثة والعشرين في ذاك الوقت أمراً هيّناً.

نقلتُ خبر إشرافي على الصفحة الإسلامية إلى جماعتي، وقد رحّبتْ الجماعة بهذا الفتح المبين، واعتبرتْ إشرافي على الصفحة مدخلاً لنشر أخبار فعاليات الجماعة وبرامجها، وتخصيص أعمدة ثابتة لأعضائها ومناصرتها في أيّ حملة يشنّها عليها أعداؤها وأعداء الإسلام في الجريدة.

وبدأت العمل في الصفحة. شرعت أقيم اتصالاتي

بالجمعيات الدينية وبمراكز تحفيظ القرآن وبالمؤسسات الخيرية، وحاولت قدر الإمكان أن أكثّف من التحقيقات الصحافية واستطلاعات الرأي، وفضّلت أن تكون الصفحة ذات صبغة محلية. ورأت صفحتي الإسلامية النور في أكتوبر ١٩٩٩م، وعلى جانب الصفحتين عمودي الذي أسميته «تراتيل».

استقبلت جماعتي الصفحة الوليدة بترحاب، كما استقبَلتها الجماعات الأخرى. ولقد كانت الصفحات الأولى صفحات إثبات وجود وجسّ نبض، وقد بدا لهذه الجماعات أنها ستكون صفحة مستأنسة مثل الصفحات الإسلامية الموجودة في الصحف الخليجية والعربية. ولكن بسبب تحوّلي الفكريّ، وبسبب ابتعادي شيئاً فشيئاً عن المجتمع المغلق الذي كنت أقبع فيه، وبسبب حالة الشكّ التي جعلتني أُخضع جميع مسلّماتي للتمحيص والتدقيق والتأكد، وبسبب قراءاتي الجديدة في كتب «الزنادقة والملحدين»، تحوّلتْ الصفحة الإسلامية من صفحة مستأنسة إلى صفحة متوحّشة شرسة، صفحة كسر التابوّات واختراق والمحرّمات.

لم يكن قصدي أن أثير أيّ جماعة أو أنتقم من أيّ اتجاه،

فقد كنت فقط صحافياً يبحث عن الجديد، ويتطرّق إلى الموضوعات غير المتوقعة، ويجازف من أجل الوصول إلى النقاط محلّ النزاع، فلقد كنت مؤمناً أنّ الصحافي الذي يتطرّق في أخباره وتحقيقاته ومقالاته إلى ما يعرفه الناس وما يحفظونه عن ظهر قلب، وإيثار السلامة وتجنّب الأذى ليس صحافياً وإنما موظف متزلّف، وقد كنت أرفض أن أصبح هذا الموظف.

تساءلت في أحد التحقيقات الصحافية في الصفحة حول مدى إمكانية استخدام تكنولوجيا المعلومات ووسائل العرض الحديثة في خطب الجمعة، فاعتبرني الإسلاميون مجنوناً. وتوصّلت في أحد تحليلاتي إلى سقوط الحاجز الذي كان يفصل بين الأناشيد الإسلامية والموسيقى بعد أن كان سماع الموسيقى لدى الجماعات الإسلامية من الكبائر، فاعتبرني الإسلاميون مثير فتنة. وأجريت مقابلة مع رئيسة مركز الحوار الإسلامي في باريس ولم تكن محجبة، فاستنكر الناس نشر صورة امرأة غير محجبة في الصفحة الدينية. وعرضت في الصفحة نتائج عدم دخول الإسلاميين ميدان السينما، فاعتبرني الإسلاميون داعياً إلى الضلالة والفسوق.

وبرغم جرأة الموضوعات التي طرحتها في الصفحة، إلا

أنّني اكتشفت أنّ الإسلاميين بكافّة توجهاتهم وقناعاتهم لا يثير حفيظتهم موضوع مثلما يثيرهم موضوع المرأة. فما تحدّثت يوماً عن المرأة إلا وجرّ الموضوع سيلاً جارفاً من الردود المتراوحة بين العنيفة والقاصمة والجارحة.

ذات مرّة كتبت عن فتاوى المرأة، وبعد استعراض بعض التناقضات في الفتاوى الصادرة بشأنها أكّدتُ على ضرورة إجراء مراجعة لهذه الفتاوى لإزالة اللبس عن الناس، وذكرت أنه من غير المعقول أن تظلّ الفتوى القائلة بأنّ المرأة التي تخرّج متعطّرة هي زانية؛ فبهذه الفتوى يمكن أن نزعم أنّ ثلثي نساء البحرين عاهرات!

نهضت صباح الجمعة على صوت الهاتف الذي لم يكفّ عن الرنين منذ الساعة السابعة صباحاً، ووجدت في الهاتف أكثر من خمسة عشر مكالمة فائتة، فحسبت أن مصيبة قد وقعت. ورددت على مكالمة من المكالمات فجاءني حديث من رجل كأنه موتور، أو كأنني اقتحمت غرفة نومه، وقال لي بدون مقدّمات: «أنت تتحدّى الله ورسوله، وتضع نفسك ندّاً لهما، ماذا تريد لنسائنا وبناتنا؟ أتريد لهم التفسخ وسلوك طريق الضالات المضلات؟!»[1].

١ أذكر أني بعد نشر هذا المقال يوم الجمعة ذهبت في نفس اليوم إلى صلاة الجمعة متأخراً ولم أتمكن سوى من سماع الدعاء في الخطبة⇐

واستمرّت الردود على مقالي هذا قرابة الشهر والنصف، حتى أغلقتْ إدارة التحرير الموضوع، ولم تنشر أيّ ردّ متعلّق بهذا الموضوع.

ولم تكد تهدأ نار ذلك المقال، حتى كتبت تحليلاً حول الاختلاط في الإسلام، ذكرت فيه ما تذكره كتب الإسلاميين[1] من أنّ الاختلاط بين الرجال والنساء كان موجوداً في صدر الإسلام، وأن الإسلام لم يمنعه، وتساءلت عن سبب محاربة الإسلاميين اليوم لموضوع الاختلاط، فقامت الدنيا ولم تقعد، وانهالت الاتصالات عليّ مرّة أخرى، وضاقت الصفحة بالردود، واستمرت عملية نشر الردود أكثر من شهرين، إلى أن تدخّلتْ إدارة التحرير مرّة أخرى ورجتني ألا أنشر أيّ ردّ جديد على الموضوع.

ومن خلال هذين الموضوعين بدأت علاقتي الجديدة بجماعة أخرى، هي جماعة السلفيين، وسأضطر لأسميها جماعة اختصاراً، لأنها ليست جماعة واحدة بل جماعات.

⇦الثانية، وبعد خروجي من الجامع، أخبرني صديقي أنّ خطبة الجمعة كانت مخصصة للردّ على مقالي، وأنّ الخطيب كان غاضباً جداً مني لأنّ الموضوع الذي تطرّقت إليه ليس من اختصاصي.

١ للدكتور يوسف القرضاوي والشيخ محمد الغزالي وفهمي هويدي وغيرهم من الكتاب الإسلاميين كتابات عدّة حول هذا الموضوع.

لقد بدأت علاقتي بهذه الجماعة بشكل يختلف عن بداية علاقتي بالجماعات الأخرى، فقد بدأت علاقتي بالجماعتين السابقتين بشكل ودّي حميم، أما علاقتي بجماعة السلفيين فقد بدأت بغير ودّ، وقد اعتبرتني هذه الجماعة مدفوعاً من جماعتي السابقة للنيل منها، ولكن سرعان ما تنازلت جماعة السلفيين عن هذا التصوّر بعد أن لمسوا ردّة فعل جماعتي السابقة.

وقد اضطررت لتأجيل طرح موضوع المرأة في الصفحة الدينية كي لا يحسب القرّاء أني طالب شهرة. والغريب في الأمر أني تطرّقت إلى موضوعات أشدّ سخونة، ولم تأتني ردّة الفعل تلك، فقد تطرّقت عدّة مرّات إلى موضوع الردّة عن الإسلام، وذكرت في خلاصة الموضوع أنّ قتل المرتدّ جريمة وليس تطبيقاً لشرع الله، ولكن لم تأتني ردّة فعل شديدة على الموضوع رغم حساسيته، خصوصاً أنّ الإسلاميين يعتبرون موضوع الردّة من أحكام الإسلام الثابتة ومن المعلوم من الدين بالضرورة. فسبحان مغيّر الأحوال![1]

---

[1] أتذكر في هذا المقام مقولة للدكتور غازي القصيبي يقول فيها: إنّ الرجال العرب يتعاملون مع أي إنجاز يتحقق للمرأة العربية وكأنه تشكيك في فحولتهم.

الخلط بين الدين والفكر

لمّا رأت جماعة السلفيين في البحرين تمادي مشرف الصفحة الإسلامية في «الضلال» ونشر الأفكار «الهدّامة» و«التشويش» على خلق الله، اتصل بي أحد كبار قيادييهم، وبعد التحية المقتضبة، قال لي: «لقد اتصلت بك لكي أقول لك اتق الله، والله إني أخشى عليك من عاقبة ما تكتبه». فرددت عليه بأنّ ما كتبته لا يعدو أن يكون رأياً شخصياً بنيته على جملة من الأمور من بينها آراء كتّاب إسلاميين ومفكرين، فردّ علي قائلاً: «إن الأمور التي تناقشها ليست محلّ نقاش، وإنما هي أوامر ونواهٍ ربّانية ليس للبشر أن يتدخّلوا بها». وختم النقاش مكرّراً: «اتق الله»!

على هذا المنوال كانت تأتيني الاتصالات والردود، فالمتصلون لا يناقشون لبّ الموضوع، بل إنّهم يؤكدون دائماً أنّ ما أطرحه قد ناقشه الأولون وتوصّلوا فيه إلى أحكام، فلماذا تناقشه مجدّداً؟

كما كانت تأتيني الردود المكتوبة لا لردّ الفكرة بالفكرة

ومقارعة الحجة بالحجة، بل هي في الغالب نقل لما ناقشه الأولون وما توصّل إليه السابقون، رغم بون المسافة بيننا وبينهم. وكانت بعض الردود تنطوي على تجريح شخصي بعيد عن الموضوع؛ ولكني – ولله الحمد – لم أتلقّ تهديداً واحداً دنيوياً، ولكن التهديدات كانت جميعها أخروية.

وكنت لا أردّ على أيّ ردّ، فلقد قلت كل ما عندي، ومنحت الجميع فرصة الردّ، وكنت لا أحذف كلمة واحدة من أي ردّ، حتى لو كان قاسياً، إذ أنّ بعض أصحاب الردود يتهمونني في ردودهم بالجهل المطبق، وبأنّي من الرويبضة[1]، وكنت أنشر ذلك ولا أبالي، ولكنّي لا أقوم بالردّ عليها، لسببين: أولاً: لأنّ أصحاب الردود لم يقارعونني الحجة بالحجة، بل ساقوا ما ساقه السلف قبلهم من مناقشات ومن تفسيرات للآيات والأحاديث النبوية، وبهذا كنت أشعر أنّ ما أكتبه في وادٍ، والردود في وادٍ آخر. وثانياً: لأني لا أريد أن أستغلّ إشرافي على الصفحة الإسلامية لكي أحقّق من خلالها انتصارات

---

١ هذه الكلمة وردت في الحديث النبوي الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: «إنها ستكون سنوات خداعات، يخون فيها الأمين ويؤتمن فيها الخائن ويصدق فيها الكاذب وينطق فيها الرويبضة. قالوا: وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة».

وهمية، فأقوم بنسف أيّ ردّ يصلني، وأثبتّ للجميع أنني انتصرت في النهاية. بل على العكس من ذلك تماماً. فقد كنت أُبرز الردود – رغم قسوتها في كثير من الأحيان – وأخصص لها مساحة جيّدة، بل في بعض الأحيان أضحّي بعمودي الأسبوعي لكي يأخذ الردّ حقه. ولم أكن أدري إذا كان تصرّفي هذا يعجب أصحاب الردود أم يغيظهم.

ولقد بلغت بعض الردود حدّاً من التجريح الشخصي، فقد كانت تأتيني ردود بأسماء مستعارة، مثل «محمد عبد الله علي»، وقد خصص صاحب الاسم هذا سطوراً عديدة للحديث حول وجهي وأنفي وشفاهي، متسائلاً في رسالته: «هل كلّفت نفسك عناء مشاهدة المنظرة، انظر إلى أنفك كيف... وانظر إلى شفاهك كيف... ألا تستحي أن يكون لك هذا الوجه الذي...»، ولم أكن أعلم ما الغرض من التطرّق لشكلي في ردّه على مقالٍ لي منشور في الصفحة الإسلامية!

وفي الحقيقة، فإني أعترف بأني كنت جريئاً أكثر من اللازم في طرح القضايا المسكوت عنها بشكل صريح، ولقد أحدثتُ لدى القراء الإسلاميين صدمة ربما قد تدفعهم إلى مراجعة قناعاتهم، أو ربما تزيدهم إصراراً وتمسّكاً بما هم

عليه. ولكني اكتشفت بشكل عملي خلط الإسلاميين بين الدين والفكر، بشكل جعلهما يبدوان شيئاً واحداً، وهذا ما ولّد لدى الإسلاميين كثيراً من المشكلات.

فالدين هو الرسالة السامية التي حمّلها الله الأنبياء ليوصلها إلى البشر لإقامة العدل وتحقيق المساواة ورفع الظلم ومحاربة الاستغلال وإيصال الناس إلى السعادة؛ أما الفكر، فهو نتاج اجتهادات الأولين للوصول إلى الأحكام المتعلقة بالمسائل التي تعترضهم، وما توصلتْ إليه عقولهم من تفسير للآيات والأحاديث والسير والأقوال، والخلط بينهما يعني تقديس الاجتهادات واعتبارها هي الدين المنزل الذي لا محيد عنه.

ولأجل ذلك، فإنّ أي محاولة لمراجعة هذه الاجتهادات، والإعلان عن أيّ رأي يخالفها يُعدّ انتهاكاً للدين ومخالفة لأحكامه ومحاربة لله ورسوله. كما أنّ أيّ انتقاد يوجَّه لرجال الدين المعاصرين يُعدّ كأنّه انتقاد للدين واعتداء على حَمَلَته. وكثيراً ما نبّهني أصحاب الردود وحذروني من أنّ «لحوم العلماء مسمومة»، أي لا تنتقدهم أبداً، فإنّ الله يعاقب الذين يتكلمون على العلماء عقاباً شديداً، ومن هنا

نجد خلطاً جديداً باعتبار كلّ متخصص في علوم الشريعة عالماً.

مرّة من المرّات وجّهت إحدى الجماعات الإسلامية الخيرية دعوة لمتخصص في الشريعة من إحدى البلدان العربية لتنظيم دورة متخصصة في العقيدة والفقه والحديث تمتدّ لشهرين، وقد منحوه فيلا من دورين وشقة لكي تسع زوجاته الثلاث وأبناءه وبناته. فانتقدت هذه الدعوة، وذكرت أنّ الجماعة الخيرية يجب أن تكون أكثر حرصاً على أموال المتبرعين، فلا تقوم بصرفها على هذا النحو من أجل دورة في الشريعة يمكن أن ينظمها أي متخصص في البحرين. فقامت الدنيا ولم تقعد، وانهالت عليّ الاتصالات والردود مرّة أخرى، وتكرّرت الدعوة لي بألا أتعرّض بالنقد للعلماء وأن لحومهم مسمومة، رغم أني انتقدت تصريف الجماعة الخيرية لأموالها ولم أنتقد المتخصص كمتخصص.

إذن كانت جماعة السلفيين مستاءة من أمرين، أولاً: أنّي كنت أضع رأيي في اجتهادات الأولين، وهي تعتبر ما قاله الأولون مقدّساً لا يقبل المساس، وثانياً: أنني كنت أنتقد آراء المتخصصين في الشريعة (المشهورين منهم)، في حين أنهم

يعتبرون هؤلاء حملة رسالة الله للناس، وأنّ انتقادهم يعني انتقاد الدين.

وكنت كثيراً ما أسمع في الاتصالات التي تردني وفي الردود على مقالاتي عبارة «ومن تظنّ نفسك حتى تنتقد اجتهاد العالم الفلاني، ومن تعتبر نفسك حتى تزعم أنّك قد توصلت إلى غير ما توصّل له السابقون». في حين إنّ الإمام علي بن أبي طالب كان يقول: «يُعرف الرجال بالحقّ ولا يُعرف الحقّ بالرجال».

كما كان كثيرون ينتقدونني لأنني متخصص في اللغة العربية ولست متخصصاً في الشريعة الإسلامية، فلماذا أحشر نفسي في تخصص غير تخصصي، ولقد وجهت الجماعة رسالة إلى مدير تحرير جريدة الأيام تحمل هذا المضمون، وتدعو إلى إسناد الصفحة الإسلامية إلى متخصص في الشريعة، وقد رشحوا له بعض الأسماء من جماعتهم. لكن إدارة تحرير الجريدة أعلنت مساندتي ووقوفها إلى جانبي.

طبقة العلماء وطبقة طلبة العلم

في أحد الأيام جاءني اتصال من أحد المشايخ يطلب مني إجراء لقاء مع شيخ قادم من دولة خليجية، امتدحه كثيراً وأوصاني أن أجري معه لقاءً يليق به. وقد التقيت بالشيخ الخليجي، وجلست معه قرابة الساعة والنصف، وحدّثني عن قدرته الخارقة على كشف السحر وإبطاله، وساق لي عدداً كبيراً من قصص أشخاص لم يفلحوا في حلّ مشكلاتهم إلا عندما اكتشف هو مخبأ السحر وأبطله. وكان يحمل في حقيبته نماذج من السحر، وقد عرض لي كيف يقوم بعملية إبطال السحر، وكان مصرّاً أن أصوّر كلّ لقطة من لقطات إبطال العمل، كما كان حريصاً على أن أصوّره أكثر من لقطة، وقد رجاني أن يرى الصور في الكاميرا وأن يختار لنفسه الصور التي يريد أن تظهر في الجريدة.

وخلال جلوسي معه، كان دائماً ما يذكر أنّ العمل الذي يقوم به هو خالص لوجه الله، وأنّه يفرح بمساعدة المحتاجين المتضررين، وأنه لولا توفيق الله لما استطاع أن

يتمكن من هذا العمل، وقد أخذ يعرض عليّ صوراً لأماكن متنوعة محفورة يزعم أنّه استطاع بفضل الله أن يكتشف السحر بها.

وفي ختام لقائي معه أهداني شريطاً يقرأ فيه بصوته الرقية الشرعية، ورجاني أن أبحث له عن ڤيلا جديدة أمامها مواقف سيارات واسعة، لكي يقوم هو بممارسة عمله في إبطال السحر ومساعدة الناس على استخراج الجنّ منهم، وأخبرني أنّ إحدى الثريات في البحرين ستتكفل بشراء هذه الڤيلا وبتوفير مصاريفها. ونبهني أكثر من مرّة بأنّ الڤيلا التي يريدها لا بدّ أن يكون أمامها مواقف سيارات واسعة، لأنه يزعم أنّ جيرانه في بلده كانوا قد اشتكوا من كثرة المرضى والمسحورين الذين يأتونه من كلّ حدب وصوب ومن استيلائهم على مواقف سيارات بيوتهم.

وبعد رجوعي إلى البيت، جاءني اتصال من إحدى القريبات ترجو أن أعطيها رقم هذا الشيخ لأنّ جارتها الفقيرة المسكينة تزعم أنها تعرّضت لمسّ من الجنّ، وعلى الفور أعطيتها الرقم، واتصلتْ. ولكن المفاجأة أنّ الشيخ نبّهها قبل أن تشرع في وصف حالتها بأنّه يأخذ على الساعة مبلغ أربعين ديناراً (لله سبحانه وتعالى طبعاً)!

ولأني كنت أعمل صحافياً ولم أكن أعمل معلناً، فقد فتح لي هذا الموضوع الباب لإجراء تحقيق صحافي حول التداوي بالقرآن والتكسب من وراء إخراج الجنّ وإبطال السحر. وقد سردت فيه الكثير من القصص الواقعية وتقصيت المكاسب التي يجنيها المعالجون بالقرآن بمنتهى الحياد، فجُنّ جنون الشيخ الخليجي لأنه كان يحسب أنّ الصفحة الإسلامية ستكون بمثابة مساحة مجانية للإعلان عن أعماله وقدراته الخارقة، ولكن لم يكن يعلم أنّ العمل الصحافي يقتضي البحث عن الحقيقة ولا مجال فيه للمجاملة.

هذه الحادثة وغيرها من الحوادث اكتشفتُ من خلالها أمراً في غاية الخطورة لدى جماعة السلفيين، وهو أنّ مجتمع الجماعة متكوّن من طبقتين، طبقة «العلماء»، وهم المحدّثون والوعّاظ والمتخصصون في الشريعة، وطبقة «طلاب العلم»، وهم مجموعة من الشباب (في الغالب) يدفعهم إعجابهم بالعلماء إلى تسخير أنفسهم جنوداً للذود عنهم وللردّ على أيّ انتقاد يوجّه لهم، ويشكّل لهم العلماء مثلاً أعلى يحاولون من خلال الدروس التي يتلقونها منهم – مهما كانت سطحية – أن يصلوا إلى مستواهم.

ويستمدّ العلماء قوّتهم من ظنون النّاس أنّ الله يمنحهم

ولأني كنت أعمل صحافياً ولم أكن أعمل معلناً، فقد فتح لي هذا الموضوع الباب لإجراء تحقيق صحافي في حول التداوي بالقرآن والتكسب من وراء إخراج الجنّ وإبطال السحر. وقد سردت فيه الكثير من القصص الواقعية وتقصيت المكاسب التي يجنيها المعالجون بالقرآن بمنتهى الحياد، فجُنّ جنون الشيخ الخليجي لأنه كان يحسب أنّ الصفحة الإسلامية ستكون بمثابة مساحة مجانية للإعلان عن أعماله وقدراته الخارقة، ولكن لم يكن يعلم أنّ العمل الصحافي يقتضي البحث عن الحقيقة ولا مجال فيه للمجاملة.

هذه الحادثة وغيرها من الحوادث اكتشفتُ من خلالها أمراً في غاية الخطورة لدى جماعة السلفيين، وهو أنّ مجتمع الجماعة متكوّن من طبقتين، طبقة «العلماء»، وهم المحدّثون والوعّاظ والمتخصصون في الشريعة، وطبقة «طلاب العلم»، وهم مجموعة من الشباب (في الغالب) يدفعهم إعجابهم بالعلماء إلى تسخير أنفسهم جنوداً للذود عنهم وللردّ على أيّ انتقاد يوجّه لهم، ويشكّل لهم العلماء مثلاً أعلى يحاولون من خلال الدروس التي يتلقونها منهم – مهما كانت سطحية – أن يصلوا إلى مستواهم.

ويستمدّ العلماء قوّتهم من ظنون النّاس أنّ الله يمنحهم

قوى خارقة ومعارف حصرية، وأنّ الناس بذلك لا يمكن أن يعيشوا بلا علماء، وإلا انقطعت آخر الحبال بينهم وبين السماء. ومن أجل ذلك فإنّ طلاب العلم يرفعون العلماء إلى مراتب التقديس، ويعتبرون أنّ أي انتقاد يوجّه إلى آرائهم واجتهاداتهم هو تشكيك في الله وفي علمه وقدرته.

هذا الخلط بين القدرة الإلهية والعلم الرباني وبين آراء العلماء واجتهاداتهم، يدفع الناس إلى التعامل مع هذه الآراء والاجتهادات وكأنها أوامر ونواهٍ ربانية لا يجوز المساس بها ولا ينبغي لأحد عرضها للنقد والتشكيك.

ويؤدي هذا الخلط إلى إعطاء العلماء قدرات خارقة، ويجعل الناس دائماً في حاجة إلى العلماء. فالعلماء هو وحدهم القادرون على تحديد الدرب المؤدّي إلى الجنة، وهم وحدهم الذين يستطيعون تجنيب الناس درب جهنم وبئس المصير، وهم وحدهم الذين يملكون المقدرة على علاج الأمراض المستعصية بالقرآن، وهم وحدهم الذين أطلعهم الله على ما يرضيه وما يغضبه.

وللمرء أن يشاهد برنامجاً واحداً من برامج الإفتاء المنتشرة في الفضائيات ليعرف كيف أنّ الناس قد منحوا عقولهم إجازة دائمة، واتكلوا على عقول العلماء ليفكروا

عنهم ويتخذوا القرارات بدلهم في كلّ صغيرة وكبيرة، من أجل أن يضمنوا الجنّة. ولا عجب إن ثار طلاب العلم على مقالاتي التي انتقدت فيها آراء العلماء واجتهاداتهم، فكيف لشابّ مثلي أن يتجرّأ على انتقاد العلماء الذين يوزعون على الناس صكوك الغفران الإسلامية.

وللمرء كذلك أن يزور مكتبة إسلامية واحدة ليرى حجم مبيعات كتب الإفتاء التي تتراوح بين الكتيبات الصغيرة والموسوعات، وكتب عذاب القبر وأهوال جهنّم، وليعرف كيف استطاع تهويل العلماء لتلك العذابات من جرّ الناس إلى اتباعهم واقتفاء أثرهم لكي تسنح لهم فرصة النجاة من الشجاع الأقرع وكلاليب النار التي يهوي بها المرء مسافة سبعين خريفاً.

أضف إلى ذلك تحويل الطبّ الشعبي المعروف قبل ظهور الإسلام في الصين والهند وغيرها من الدول إلى طبّ نبوي، وتصوير الرسول صلى الله عليه وسلّم وكأنه قد ترك مهمة تأسيس المجتمع الإسلامي الأول، وتفرّغ ليشرح للناس الخلطات النبوية لكلّ داء. إذ ساهم تحويل هذه التجارب البشرية إلى معارف ربانية ثابتة في يد العلماء إلى تنامي اتباع الناس للعلماء وزيادة تقديسهم لهم، فالله قد منحهم

قدرات خاصة ومعارف حصرية لشفاء الناس من الأمراض المستعصية، فكيف لهم أن يتعلموا من هؤلاء العلماء؟

أعمال الجماعة مرهونة بما يمليه العلماء

أذكر أنّ أحد العلماء المتخصصين في ما يسمى بالطبّ النبوي كان في أحد دروسه يشرح للعامّة أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان لا يداوي الحمّى، وأنّه كان يعتبرها مطهِّرة للمريض من الآثام والشرور، وأنه يترك المريض هكذا بدون علاج. فردّ عليه أحد الأطباء بأنّ ترْك المصاب بالحمى بدون أدوية قد يودي به إلى الموت إذا استمرّ ارتفاع درجة حرارته لفترة طويلة، ولا بدّ حينها من العلاج، فثار العالم، وقال له: «أنت تقول لي الطب يقول كذا وكذا، وأنا أقول لك الرسول قال كذا، هل تكذّب الرسول إذن؟!».

ولم تقتصر متابعة الناس للعلماء وسؤالهم عن تفاصيل حياتهم وهم في حالة اليقظة، بل أصبح النّاس يلجأون إلى العلماء للسؤال عن أحلامهم ومعانيها وما قد يحدث لهم في الحياة بسببها: فذلك الرجل يسأل الشيخ في التلفزيون عن تفسير رؤيته لكلب أسود في النوم، وتلك المرأة تتصل بالشيخ بمجرّد استيقاظها لتسأله عن تفسير حلمها الذي رأت فيه

خيطاً مربوطاً بقدمها اليسرى، والغريب أنّ كلّ هذه الأحلام يوفّر العلماء لها تفسيراً، فالشابة العازبة يفسر لها العالِم حلمها بأنه غريس قادم، والمرأة المتزوجة توّاً يفسر لها العالم حلمها بأنّها ستحمل، والشاب المتخرّج يفسر له الشيخ حلمه بأنه على وشك الحصول على وظيفة... وهكذا.

وليس مستغرباً أن يتحقّق ما يفسره العالِم، فالشابة في غالب الأحيان ستتزوج، والمرأة المتزوجة في غالب الأحيان ستحمل، والشاب المتخرج في غالب الأحيان سيحصل على وظيفة. أما إذا تأخرت المرأة في الزواج ولم يتحقق حلمها فإنها ستلجأ إلى العلماء مجدّداً، وسيفسرون لها ذلك باحتمال أن تكون مسحورة، وينصحونها أن تأتي إليهم لكي يقرأوا عليها القرآن، ويرشوا عليها الماء، ويبحثوا عن العمل المدفون في باطن الأرض.

وبذلك تصبح حياة الناس كلها مرتهَنة بالعلماء: فالمرأة تجلس صباحاً لتبحث عن رقم هاتف العالِم لتسأله عن حلمها، ثم تذهب إلى العالِم ليصف لها الدواء النبوي لمرضها، ثم تذهب إلى العالِم ليفكّ عنها السحر ولتنجب لزوجها الأطفال، ثم تسأله عما يجوز لها أن تعمله من أعمالها اليومية، فهي تستقيل من وظيفتها في البنك إذا قال

لها العالِم أنّ أعمال البنوك من الربا، وهي تمنع أولادها من الذهاب إلى السينما إذا أخبرها العالِم أنّ السينما من أدوات إبليس لنشر الفساد والرذيلة، وهي تلغي سفرها إلى دولة مجاورة لزيارة أختها إذا حذرها العالِم من مغبة السفر بدون محرم وعقاب الله المترتب على ذلك، وحتى كيفية دخول الحمام والخروج منه والجنب الذي يجب أن تنام عليه يخبرها العالِم عنه، فكيف للناس أن تستغني عن العلماء.

وهذه غربة أخرى يمكن أن يعيشها الملتزم أو المنضم لجماعة إسلامية، فأعماله في شتى مناحي الحياة مرهونة بما يقوله العلماء. فهو لا يكلّف نفسه عناء التفكير، وتقليب أوجه الأمر بنفسه، ومشاورة أهل الاختصاص، بل هو ينتظر قرار العالِم، هل يقوم بهذا العمل أم لا. وبذلك يصبح المجتمع مقسماً إلى قسمين: قسم العلماء، وهم الذين يفكرون ويقدّرون ويقرّرون ويعلنون ما توصّلوا إليه على أنّه أمر ربّاني، وقسم طلبة العلم أو عامة الناس، وهم الذين ينتظرون ما يتوصل له العلماء وما عليهم سوى التطبيق.

وبذلك يصبح عامّة الناس مسيّرين بعقول العلماء، ويشعرون بالاستيحاش من كلّ جديد يطرأ على حياتهم،

لأنّهم ينتظرون ما يقوله العلماء عنه، ويفقدون بذلك ملكة التفكير والتمحيص والتقدير، خشية أن تقودهم عقولهم إلى الخطأ الذي لا يجازي عليه الله – برأي العلماء – إلا بنار جهنم وبئس المصير.

أما إذا قام أحد من غير العلماء وأعلن عن رأيه في أي مسألة، فتتحرّك ضده جبهتان: جبهة العلماء الذين يظنون أنّ هذا الدور هو دورهم، ولا ينبغي أن يأخذه أحد غيرهم، وكأن كلّ رأي يُطرح هو محاولة لإزاحتهم عن عروشهم وبروجهم العاجية، وجبهة ثانية هي جبهة عامة الناس وطلبة العلم الذين يهبّون للتصدّي لأيّ رأي مختلف عن الرأي الذي قاله العلماء، بحجة أنّ العلماء هم وحدهم الذين أعطاهم الله العِلم في الأرض، وأوكلهم مهمة إيصال الناس إلى الجنّة ونعيمها، حيث أنهم لا يصدّقون أنّ أحداً ربما يأتي برأي أصوب من رأي العالم الذي يشفي المرضى ويقي من السحر ويتنبأ بالمستقبل ويحجز مكاناً للمؤمنين في درجات الجنة.

هذا النمط من تعامل عامة الناس مع العلماء يجعل من العلماء هم قادة المجتمع، مع أنهم لا يملكون القدرة على قيادته لأنهم لا يملكون أدوات التفكير المنطقي، ولا يعرفون

مقتضيات العصر ومتطلبات التطوّر، وهم أناس أسيرو النصوص ومحاربو أيّ نشاط عقلي.

أذكر يوم أن كنا في مؤتمر رابطة الأدب الإسلامي العالمية في اسطنبول، كان في المؤتمر عالِم ذو منزلة كبيرة في العالَم الإسلامي، وهو كبير في السن وقد قارب التسعين من العمر، وكنا نلحظ معه رجلاً وقوراً يقوده ويجلسه ويقيمه ويتابعه إلى غرفته، فسألنا مسؤول المؤتمر عن هذا الشخص، فأخبرنا أنّه مسؤول كبير في الخطوط الجوية البريطانية، وهو من أصل هندي، وعندما سمع بنبأ قدوم العالِم إلى اسطنبول طلب إجازة وأخذ يرعى الشيخ، لدرجة أنّه يتلقف كلّ حبّة رز تقع من فم العالِم فيلتقطها ويأكلها، وحينما ينام العالِم، يقوم هذا الرجل بالنوم عند رجله، فنصفه على الأرض، ويداه ورأسه عند أصابع رجل العالِم. فبالله عليكم، هل تعتقدون أنّ هذا الرجل يقبل أن يقوم أحد من عامة الناس ويعلن عن رأي يخالف رأي العالِم؟ أو هل تعتقدون أنّ هذا الرجل يمكن أن يجرؤ على إخضاع كلام العالِم للمناقشة؟ أليس في ذلك إلغاء للعقل وتعطيل لملكاته.

فلا عجب بعد ذلك أن يعنفني المتصلون بسبب مقال كتبته وخالفت فيه رأي شيوخهم، وينصحونني بالحذر من

عقاب الله، لأنّهم يعتقدون أنّ علماءهم يستمدّون فتاواهم مباشرة من الخالق، وكأنّ عقل هؤلاء العلماء يختلف عن عقول بقية النّاس، وكأنهم لا يعملون أنّ المسائل التي اتفق عليها الفقهاء منذ صدر الإسلام إلى يومنا قليلة جداً، وأن بقية المسائل قد أتخمت مكتباتنا العربية والإسلامية بالاختلافات والمناقشات والمجادلات والمناظرات.

إنّ الذين يتجرّأون على طرح آراء مخالفة لرأي العلماء هم أولئك الذين لم تنطلِ عليهم حيلة الكلام باسم الله، والنيابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم في إصدار الأحكام، هذه الحيل التي يلجأ إليها العلماء تحت شعار «العلماء ورثة الأنبياء»، فيصبح ميراث الأنبياء محتجزاً عند أولئك العلماء الذين تحلّقوا في حلقات المواعظ والفقه، فعاشوا حياة اغتراب عن مجتمعهم وعالمهم وعصرهم، فأضاعوا أنفسهم، وها هم يقودون مجتمعهم إلى التخلّف والرجعية.

وهم الانجاز والطاقات المهدورة

ذات مرّة اتصل بي أحد الأصحاب وعاتبني على عدم تغطيتي لحدث مهمّ، طالباً مني إفراد مساحة كبيرة في الصفحة الإسلامية في الأسبوع الذي يليه لكي يأخذ الحدث حقّه من التغطية. فاجأني العتاب، إذ كنت متابعاً جيّداً لما يجري على الساحة المحلية، وخصوصاً البرامج والفعاليات الدينية بحكم إشرافي على الصفحة، ولم أكن أتوقّع أن يفوتني حدث مهمّ. فسألته على استحياء: وما هو هذا الحدث. فردّ عليّ بكلّ فخر: لقد أعددنا حملة كبيرة لجمع أشرطة الأغاني من التائبين، وقمنا بجمعها في ساحة كبيرة، ثم أعدمناها أمام تكبير وتهليل الجمهور. فصرخت داخل قلبي: الله أكبر، الله أكبر.

هذه القصة وغيرها من القصص المشابهة تفتح المجال للحديث حول وهم الإنجاز عند الجماعات الإسلامية، والطاقات المهدورة فيها. فهذه الجماعة تزخر بالطاقات وبالشباب المخلصين للعمل، ولكنّ طاقات هؤلاء مهدورة

فيما يعتقدون أنّه إنجاز سينالون على إثره المثوبة من الله.

أغلب المنتمين إلى الجماعات الإسلامية في البحرين هم من الشباب، إذ تعتمد هذه الجماعات على الشباب اعتماداً كبيراً، وتستغلّ حماسهم وحيويتهم واندفاعهم لتحقيق أهدافها وتنفيذ ما يخطط له القادة. ولكنّ هؤلاء الجماعات أرادوا أن يكون الشباب أدوات للتنفيذ وليسوا أدوات للتفكير، فقد أسلم هؤلاء الشباب أمر التفكير والتقدير والأمر والنهي لمسؤولي الجماعات - استناداً إلى تراتبية العالِم وطلبة العلم عند بعض الجماعات وتراتبية الإخوة الكبار والأعضاء عند الجماعات الأخرى — ولذلك فإنّ غاية ما يطمحون إليه هو أن يحققوا ما يريده هؤلاء القادة، ويعتبرون أنّ أيَّ أمر يرضيهم هو الإنجاز وما سواه فهو الباطل.

أضف إلى ذلك أنّ إسناد أمر التخطيط ووضع البرامج وتنفيذ الخطط للعلماء حبيسي النصوص والكتب الصفراء يؤدّي في النهاية إلى الخلط بين ما هو إنجاز وما هو وهم الإنجاز.

وبذلك فإنّ هذه الجماعات تقيم الكثير من البرامج

والحملات والفعاليات التي تحسب أنها إنجازات وهي ليست إلا أوهام إنجازات. فجميع المصلين يذكرون تلك الملصقات التي كانت تلصق في لوحات المساجد، وكانت تتضمن رسمين، رسماً لرجل يلبس ثوباً طويلاً وقد وُضِع على ثوبه (خطأ)، ورسماً لرجل آخر يلبس ثوباً قصيراً وقد وضع على ثوبه (صح). كما يذكر المصلّون تلك الحملات التي كانت تستهدف أيّ صورة لرجل أو امرأة أو حيوان في المسجد، وقد تمّ تجنيد شباب كثيرين من أجل إنجاز هذه المهمة وتخليص مساجد الله من الصور.

وإلى جانب الإنجازات الوهمية هناك المعارك الطاحنة التي تدور بين الجماعات الإسلامية المختلفة حول مسائل فرعية، وتُهدر فيها الكثير من الطاقات والكثير من الوقت، وتُسرف من أجلها الكثير من الأموال التي تذهب إلى المطبوعات والملصقات والأشرطة. ففي كلّ رمضان تدور المعارك في المساجد والجوامع بين أنصار العشرين ركعة في التراويح وأنصار الثماني ركعات، على الرغم من أنّ صلاة التراويح سنّة من السنن. وهناك معارك كثيرة تدور في آخر رمضان حول زكاة الفطر: هل يجوز إخراجها مالاً أم يجب

أن تكون من قوت البلد[1]. أضف إلى ذلك تلك المعارك الطاحنة التي تدور بين الجماعات حول صفات الله، وهل يجوز لنا أن نؤولها أم يجب أن نأخذها بمعناها الظاهر. وكم من الوقت الذي يُنفق في طباعة المؤلفات التي تنتصر لكلّ فريق، وكم من الوقت الذي ينفق في توزيعها وإقامة الدروس لنشرها.

وإذا كانت مناسبة المولد النبوي فرصة لتذكّر المسلمين فضائل الرسول على الأمة، فإنّ الجماعات الإسلامية تحتشد في هذه المناسبة للعراك: ففريق من الجماعات الإسلامية يقوم بطباعة الكتب وتنظيم الدروس وتوزيع المنشورات والأشرطة التي تسفّه الرأي القائل ببدعية تنظيم احتفال بالمولد، والفريق الآخر يقوم بطباعة الكتب وتنظيم الدروس وتوزيع المنشورات والأشرطة التي تسفّه الرأي القائل باستحباب تنظيم المولد، وتعتبر المولد بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار. وكلّ فريق يمنّي النّفس بتحقيق إنجاز الانتصار على الآخر.

---

١ أغلب الذين تصلهم زكاة الفطر أرزاً، يفضلون أن تصلهم الزكاة مالاً حتى يوفروا لأولادهم كسوة العيد أو يدفعوا بها ديونهم، إلا أنّ بعض الجماعات – رغم علمهم بذلك – يصرّون على أن يعطوهم إياها أرزاً تطبيقاً لما قرّره علماؤهم.

وفي خضمّ انشغال الجماعات الإسلامية بتحشيد الحشود وبتسخير الأموال – وما أكثرها – وبإنفاق الوقت في سبيل تحقيق هذه الإنجازات الوهمية، فإنّ غايات الإسلام الكبرى، وهي إشاعة العدل ورفع الظلم ومحاربة الفقر وعمارة الأرض وتحقيق السعادة، تبقى مشروعات مؤجلة لأجل غير مسمى عند هذه الجماعات، ويبقى أمر تحقيقها ربما مرهوناً بانتهاء الجماعات من تحقيق جميع إنجازاتهم الوهمية.

ولقد تركتْ الجماعات الإسلامية أمر تحقيق غايات الإسلام الكبرى إلى الجماعات الأخرى الليبرالية والشيوعية والماركسية التي يحاربها الإسلاميون ليل نهار، ويدعون عليهم بالويل والثبور في صلواتهم، ويزعمون أنّهم يعادون الإسلام ويقفون عثرة في سبيل تطبيق شريعة الله في أرضه، رغم أنّ هذه الجماعات غير الإسلامية قدّمت مشروعات جادّة في سبيل إشاعة المساواة وإزالة الفوارق الطبقية بين الناس ليصبحوا كأسنان المشط، وكسر احتكار الأغنياء وتسلّطهم على المعدمين، والمساهمة في تأسيس مؤسسات المجتمع المدني التي تسعى إلى الدفاع عن حقوق الناس وتوفير السعادة لهم.

إنّ هذا الخلط بين الإنجازات وأوهام الإنجازات جعل من الجماعات الإسلامية بعيدة عن المساهمة في نهضة المجتمع وفي رقيه وازدهاره وفي دفع الحركة العلمية. بل أصبحت هذه الجماعات تقف أمام كلّ تقدم وتواجه كلّ مستحدث، وربّما شنّت المعارك ضدها بدعاوى شتّى، منها أنّها تَشبُّهٌ بالغرب أو أنها غطاء استعماري أو أنها مخالفة للشرع أو أنّها ستفتح أبواب الفساد على مصاريعها.

وفي أحسن الأحوال لا تكون الجماعات الإسلامية وسط حركات التحديث والتجديد سوى متلقية على مضض للمشروعات بدل أن تكون هي الرائدة، فحينما وُضع الدستور في بعض الدول تمّت معارضته بحجة أنّ القرآن والسنة هما أساس كلّ تشريع، وحينما سُنّت الانتخابات ودُشّن البرلمان وقف كثير من الإسلاميين ليعلنَ بعضهم أنّ البرلمان حكم الشعب للشعب وأنه لا حكم إلا لله، وبعد لأيٍ دخلوا في البرلمان أفواجاً حتى أصبحتَ لا تُرى في البرلمان غير اللحى الكثيفة والعمائم الكبيرة.

الانشغال بالموت على حساب الحياة

وإذا كانت الجماعات الإسلامية قد تركت أمر تحقيق غايات الإسلام الكبرى للجماعات التي تحاربها وتدعو عليها، فإنها قد تركت لها أيضاً أمر تسيير الحياة بعلومها وثقافاتها وفنونها وآدابها، لأنّ الجماعات الإسلامية منشغلة بما هو في نظرها أهمّ من ذلك، إنها منشغلة بالموت وبالغيبيات.

كتبتُ في الصفحة الإسلامية عن الحياة كثيراً، وضرورة أن يكون للجماعات الإسلامية دور في صنع حياة أفضل لبني البشر، ولفتُّ الانتباه إلى التخلّف الشديد الذي تعيشه الدول العربية والإسلامية بسبب انشغالنا عن الحياة بالموت، فلامني الكثيرون وجاءتني اتصالات مستنكرةً ما كتبت؛ في الوقت نفسه تنتشر آلاف الكتب التي تتكلم عن الموت وتسرد أدقّ التفاصيل عن عذابات القبر، وتخصَّص المجلدات عن أهوال يوم القيامة دون أن يبدر أيّ احتجاج عليها.

تقوم الجماعات الإسلامية بالترويج للحديث النبوي

الذي يقول: «عش في الدنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل»، ولا تروّج للحديث القائل: «إن قامت الساعة في يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها». وكأنّ هذه الجماعات تستهويها قصص الموت وأحاديثه ولا تستطيب أحاديث الحياة والتمسّك بها.

أما الوعّاظ الذين يجوبون مساجد البحرين – وما أكثرهم – فهم كأنهم يدعون، من خلال القصص المبكية التي يصوغونها والأحاديث المفزعة التي يسردونها، إلى ترك الدنيا وانتظار الآخرة، ويصوّرون للناس ملك الموت يتربص لهم في كلّ زقاق، وأنّهم لا بدّ أن يقضوا جلّ وقتهم في ذكر الله وتلاوة القرآن وحضور دروس الوعظ حتى يقبضهم الله وهم على عبادةٍ.

ولا عجب أمام هذا الترويج أن تجد الملتزمين يأتون إلى وظائفهم وكأنهم مضطرّون إلى ذلك، أو كأنّ هذه الأعمال قد انتزعتهم من مساجدهم التي كان من المفترض أن يكونوا بها، أو كأنّ الدوام وقت قبيح مستقطع من العبادة، ويتمنون في كلّ يوم أن تقوم دولة الإسلام فتكفيهم من دوام العمل وتصرفهم إلى المساجد ليعبدوا الله ويقرأوا القرآن ويحضروا دروس الفقه ويستعدّوا للآخرة.

وفي رمضان، يظهر تأثير هذه المواعظ على الموظفين في العمل، كلٌّ منهم يخبئ المصحف تحت مكتبه، ويفتحه للقراءة في وقت الدوام الرسمي، ولا يبالي الموظف إذا تكدّست أوراق العمل فوق مكتبه، فعمل المكتب لا يوفّر له سوى حطام الدنيا الزائلة، أما عمل الآخرة فهو الذي يحجز له قصور الجنّة ويضع بين يديه الجواري الحسان والإماء، وإن اختار فإنه سيختار الجواري طبعاً!

وما زلت أذكر في رمضان بأحد الأعوام، وقد ذهبنا لأداء صلاة الظهر في عملنا، وبعد انتهاء الصلاة استدار الإمام – وهو موظف – وفتح كتاباً وأخذ يعظ ويقرأ، فبادره أحد المصلين، وقال له: «رجاءً... أغلق الكتاب، فلا يجوز أن يكون درسك على حساب وقت المراجعين». ولم يستحسن الإمام هذا الكلام، إذ لم يتعوّد هؤلاء أن ينتقدهم أحد، وقال له: «خمس دقائق لا تضرّ المراجعين»، وأمام إصرار المصلّي على إيقاف الإمام عن درسه اضطر إلى ترك المصلى وترك الإمامة احتجاجاً.

وإذا كان تذكير المسلمين بالموت والآخرة والحساب مبرَّراً في فترة من الفترات، أيام الفتوحات الإسلامية يوم أن كانت تأتي المسلمين غنائم كسرى وقيصر وجواري بني

الأحمر، ويوم أن كانوا لا ينتهون من بناء قصر من قصور خليفة المسلمين إلا وانصرفوا لبناء قصر آخر، ويوم أن كان الخليفة يقوم للسحابة: «أمطري حيث تشائين فسوف يأتيني خراجك»، ولكنّ هذا الحديث ليس مبرّراً اليوم ونحن في مؤخرة ركب الأمم ونعتمد على غيرنا من الأمم حتى في صنع مناديلنا الورقية.

فأي مكتبة إسلامية تزورها اليوم تجد الوفرة الوفيرة من كتب أهوال القيامة وعذاب القبر وأصناف عذابات جهنم، وتجد القلة القليلة من الكتب المتحدّثة عن الحياة، وتجد الرواج الكبير لأشرطة القرآن التي يقرأ فيها القارئ الآيات المبكية المتحدثة عن النار وتبدّل الجلود من العذاب وعن الكفار الذين يساقون إلى جهنم زمراً، لا سيما تلك الأشرطة التي يبكي فيها القارئ أكثر مما يتلو؛ أما بقية الأشرطة فتبقى مركونة للانتظار وتراكم الغبار.

إنّ تركيز الجماعات الإسلامية على أحاديث الموت وعلى الغيبيات، جعلهم يعيشون غربة وسط جماعات وأفراد يعيشون الحياة طولاً وعرضاً ويكتسبون الخبرات ويطّلعون على المستجدات فيها ويؤسسون مؤسسات المجتمع المدني ويستفيدون من تجارب الدول، ولا يكون للجماعات

الإسلامية حينها أيّ دور سوى تتبّع سقطات هذه الجماعات وبثّ الريبة في نفوس أعضائها منهم، للاعتقاد الدائم بأنّ وراء هذه الجماعات مخططات غربية تهدف إلى زعزعة الإسلام في النفوس وتقويض أركانه.

وحتى عندما أحست الجماعات الإسلامية بأنّ الآخرين قد سحبوا البساط من تحت أقدامها في شتى مناحي الحياة، وأرادت أن تدخل الساحة مرّة أخرى، دخلتها خائفة متوجّسة مستوحشة. وسبب خوفها هو الاغتراب الذي عاشته خلال عقود طويلة وجعلها تعيش في حالة من الجهل المطبق تجاه كثير من أمور الحياة.

ذات مرّة، صعقني صاحب منتمٍ إلى إحدى الجماعات الإسلامية، حينما قال لي: «إننا المسلمين متقدمون على الغرب»، وحينما طلبت منه المزيد من التفسير قال لي: «إننا نملك الإيمان بالله الواحد الأحد، وهم لا يملكونه، فما فائدة هذه المصانع وهذه المخترعات وهذه الأسواق التي تملأ العالم ما دام ليس لديهم الإيمان». واضطرّ صاحبي أن يخاصمني أياماً لأني رددت عليه قائلاً: «إنّ ربّك قد أنزل الإنسان على الأرض ليعمرها لا ليعقد لحيته الكثّة بسارية المسجد».

فحينما تغيب الإنجازات، تعيش الجماعات على وهم الإنجازات، وتكذب الكذبة وتصدّقها، وتروّج لها.

العزلة عن حركة العلم والاكتشافات

في أحد مقالاتي في الصفحة الإسلامية كتبت أسأل: «مَن هم علماء الأمة؟». كنت كلما كتبت مقالاً أو عرضت تحقيقاً صحافياً أو أجريت مقابلة يتطرّق مضمونها إلى ما يخالف رأي الجماعات الإسلامية يردّون عليّ رداً واحداً: «ما أتيت به خلاف ما يقوله علماء الأمة».

وإذا انتقدت رأياً فقهياً ردّوا عليّ: «لحوم العلماء مسمومة»، أو قالوا لي: «نحذّرك من أن تضع نفسك في مواجهة العلماء»، وكأنهم يحذرونني من العقاب الإلهي جراء انتقادي لرأي من الآراء.

ولما تحرّيت عمن هم علماء الأمة، وجدت أنهم يقصدون المتخصصين في الشريعة خريجي الجامعات الإسلامية، أو المنتظمين في الدروس الدينية بالمساجد، الذين صارت لهم دروسهم الخاصة التي يأتيها القاصي والداني.

إذن هم ليسوا علماء وإنما هم خريجو كليات الشريعة أو خريجو دروس المساجد. لأننا إذا اعتبرنا أمثال هؤلاء

علماء، فإننا يجب أن نعتبر كلّ خريج من تخصص الكيمياء عالم كيمياء، وكلّ خريج من تخصص الفيزياء عالم فلك.

إنّ هذا الخلط بين العلماء وخريجي كليات الشريعة جعل المنتمين إلى الجماعات الإسلامية يرفعون خريجي الشريعة إلى مقام أكبر من مقام الذين أفنوا زهرة شبابهم في الدراسة بالجامعات الأوروبية أو الأمريكية في تخصصات الهندسة وعلوم الحاسوب والإدارة والمحاسبة.

وإذا ذُكر العلماء في شتى دول العالم وذُكرت إنجازاتهم وبحوثهم ودراساتهم، فإنّ هناك إيماناً في الجماعات الإسلامية بأنّ علماءهم أفضل من العلماء والمخترعين والمبتكرين، لأنّ هؤلاء كرّسوا حياتهم لنيل علم الدنيا، أما علماؤهم فقد نذروا وقتهم وجهدهم لنيل علم الآخرة المفضي إلى الجنّة.

وبذلك تصبح أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنها «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم»، و«إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع» دعوة إلى طلب العلوم الشرعية، والجلوس في حلقات الشريعة أمام علماء الأمة لنقل العلم إلى الأجيال، لضمان دخول الجنّة.

هذا الخلط بين العلماء وخريجي الكليات الشرعية يُعدّ

أحد أسباب ركوننا إلى الكسل وغيابنا عن عالم الاختراعات والمبتكرات والاكتشافات، لأنّ العلم عندنا هو تلقّي دروس الفقه والتوحيد والتفسير والحديث والتجويد، أما علوم الفيزياء والكيمياء والحاسوب والمحاسبة والتسويق والذرّة فهذه لا تجعل المرء المتخصص فيها عالِماً وإنما تساعده فقط في الحصول على وظيفة.

أما الفرق بين العلماء وعلماء الجماعات الإسلامية، فهو أنّ النتائج التي يتوصّل لها العلماء مسموح أن تتعرّض للنقد والأخذ والردّ والمناقشة، أما آراء علماء الجماعات الإسلامية فهي كالقرآن المُنزل لا يمكن مناقشتها ولا نقدها، وكأنّهم استمدّوها مباشرة من ربّ العالمين.

وكثيراً ما تجادلتُ مع أعضاء الجماعات الإسلامية حول مفهوم العالِم، فقلت لهم أنّ العالِم لا يمكن أن يُطلَق عليه هذا الاسم ما لم يُخضِع المسائل التي يبحثها للمنهج العلمي الحديث القائم على التجربة، وطالما هو لم يفعل ذلك فهو مجرّد ناقل، ولا يمكن أن يُطلق عليه لقب عالِم. ولكن كثيراً من الذين جادلتهم ينهون النقاش باتّهامي بأني متأثّر بالمنهج الغربي الذي يريد إخضاع كلّ مسألة إلى الشكّ

والفحص والتجربة، حتى المسائل الدينية التي اتفق عليها علماء الأمة.

ونتيجة لهذا الخلط أيضاً، جرّ علينا خريجو كليات الشريعة وبالاً كبيراً، وصاروا يسوّقون لأفكار ومناهج وطرق تفكير تدعو إلى الكسل والابتعاد عن علوم الحياة والتوجّس من كلّ ما هو آت من الغرب من أفكار وطرق بحث واكتشافات واختراعات.

في زيارتي للحرم المدني، استمعت إلى أحد خريجي كليات الشريعة المشهورين، وقد تحلّق للاستماع إليه آلاف المصلّين، وقد شرع يحدّثهم عن ضلال الغربيين في رحلاتهم الفضائية، وفي الاستماتة لتصوير الكواكب والنجوم، معتبراً أنّ ما يقومون به هو من البله والجنون ومنازعة الله في ملكه وملكوته. وأكاد أجزم أنّ أحداً من المصلّين لا يمكن أن يجرؤ على انتقاد «هذا العالِم» علناً ومناقشة رأيه في اكتشافات علماء الفلك وغزوهم للفضاء، رغم وصفه لعلماء الفلك بأنهم مجانين ينازعون الله في مُلكه.

وبعد أن أبصر خريجو كليات الشريعة أنفسهم خارج دائرة الاكتشافات، ووجدوا الناس مبهورين بالاكتشافات الغربية المذهلة، لم يرضوا أن ينازلهم في منزلتهم العلمية

مُنازِل، فطفقوا ينسبون كلّ مُكتَشَف علمي للقرآن، وصاروا يتندرون بالمكتشفات الحديثة معتبرين أنّ القرآن والسنة النبوية قد تكلما عن جميع المكتشفات، وأنّ علماء الغرب لم يقوموا سوى باكتشاف ما هو مكتشف سابقاً عند المسلمين منذ أربعة عشر قرناً من الزمان.

فالمكتشفات الطبية قد تحدّث عنها الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديثه، والذرّة مذكورة في القرآن، وطبقات الأرض مشروحة في الآيات الكريمة، وجيولوجيا القمر ذُكرت في الأحاديث النبوية، وحتى الحوادث التاريخية التي حدثت، والمعارك التي تدور حالياً وما سيجري لاحقاً كلّه مذكور ومتنَبّأ به في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة.

وليس غريباً والأمر كذلك أن تتأخر عندنا مسيرة العلم وتتلاشى الرغبة في الاكتشافات لأنّ كلّ ما يكتشفه العالَم موجود في القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهّرة. بل إنّ بعض الناس صاروا يطلّعون على القرآن ليس ككتاب مقدّس يدعو إلى الحياة السعيدة الفاضلة ويعرض مكارم الأخلاق ويحض على فعل الخير، وإنما ككتاب ألغاز يحمل الكثير من العجائب وبانتظار من يفكّ أسراره.

هذا الخلط الكبير الذي تقع فيه الجماعات الإسلامية

جملها تعيش في عزلة بينها وبين حركة العلم والاكتشافات، وبدل أن تكون قوّة فاعلة دافعة إلى درب التقدّم أصبحت حاجزاً سميكاً بين منتسبيها وبين العلم، وبذلك أصبح أعضاؤها يحتفون بخرّيجي كليات الشريعة أكثر من احتفائهم بأحمد زويل مثلاً.

... ثم حلقت لحيتي

رافقتني اللحية طوال فترة اتصالي بالجماعات الإسلامية، وكانت في كثير من الأحيان معيناً لي على توثيق الصلة بهذه الجماعات، ولكنها في الوقت ذاته كانت عائقاً في بعض الأحيان عن اتصالي مع كافّة شرائح المجتمع.

كانت الجماعات الإسلامية تضع تربية اللحية في قائمة السنن المؤكدة، وكانت تدعو أعضاءها إلى الالتزام بها، عدا جماعة واحدة، كانت تفضّل في ذلك الوقت الاستغناء عن اللحية مؤقتاً حتى يزول حذر الناس منها.

كانت لحيتي مبعثرة وغير مرتبة، ولكنها كانت كافية لولوجي دنيا المشيخة من أوسع أبوابها، فقد تخلّى النّاس عن ذكر اسمي كثيراً، وأسموني «شيخاً». وكاد الغرور يداخلني لولا تعلّقي بالطفولة والمراهقة وركوب الدرجات ولعب كرة القدم في الحواري، وتفضيلي لها على التزامات المشيخة.

مع اللحية، اكتشفت مقدار اهتمام الجماعات الإسلامية بالقشور وابتعادها عن اللبّ والأساس في كثير من القضايا.

فهذه الجماعات مثلاً تعطي الأولوية في التصدّي لانتشار الموسيقى قبل التصدّي لانتشار الأمراض الفتاكة مثلاً، وتعتبر دخول المرأة في ميدان الرجال أكبر ضرراً من تولّي مرتشٍ فاسد مسؤولية مؤسسة حكومية.

ومع اللحية، اكتشفت كم من السهل أن يصبح المرء مسؤولاً في هذه الجماعات، فتكفي بضع شعرات مبعثرة على الوجنتين، وقليل من جمال الصوت، وقليل من المحفوظات ليصبح المرء صاحب أمر ونهي، وصاحب أتباع ومريدين في هذه الجماعات، ولو كان ذلك على حساب الكفاءة.

ومع اللحية، اكتشفت مقدار انفصال هذه الجماعات عن العصر، وارتباطها بعصر الرسالة، لا بثوابته الداعية إلى تحرير الناس من العبودية ورفع الظلم وتحقيق المساواة، وإنما باللبس وطول اللحية وما يأكلونه وما يشربونه.

ومع اللحية، اكتشفت كيف تتعامل هذه الجماعات مع النصوص، فيُخرجونها من سياقها التاريخي، ويفرّغونها من مقاصدها العليا، وينزعونها من جوّها الاجتماعي والثقافي، ويشيعونها بين النّاس وكأنها أوامر ونواه ربانية.

ومع اللحية، اكتشفت مقدار إساءة هذه الجماعات – من غير قصد – إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم، عبر الأحكام

التي يجتهدون فيها وينسبونها إليه، مما يشكّل صورة قاتمة على الرسول الأعظم. فيبدو للقرّاء وكأنه ترك ثوابت الدين ورسالته السامية وتفرّغ ليلزم الناس بلباس معين وشكل معين وتصرّفات معينة وأعمال معينة.

وبعد قراءاتي الكثيرة، ومراجعاتي لقناعاتي، وتحوّلي الفكري، ومحاولتي اللحاق بما فاتني - منذ اتصالي بهذه الجماعات - من معرفة بالناس وبتفاصيل حياتهم، وبالأجواء الثقافية في البحرين وبالعروض الفنية وبالموسيقى والسينما، وجدت أنّ اللحية تشكّل عائقاً لي، لسببين:

أولاً: لأنّ الناس صاروا يحكمون عليّ لا لأفكاري التي أومن بها، ولكن بسبب شكلي، فعضو الجماعات الإسلامية يجد نفسه منسجماً معي رغم أنه لم يسمع أيّ رأي من آرائي، بينما غير المنتمين إلى هذه الجماعات يولّون عنّي ويعتبرونني ضدّهم بمجرّد رؤيتهم للحيتي.

ثانياً: لأني حين أعرض أفكاري على غير المنتمين إلى الجماعات الإسلامية يزعجني تعليقهم على ما قلته بقولهم: «والله زين، عضو الجماعات الإسلامية لديه مثل هذه الأفكار»، كما تزعجني نظرات استغرابهم من حضوري الحفلات الموسيقية أو العروض المسرحية.

ثالثاً: أنني تسببت كثيراً في إحراج الجماعات التي أنتمي لها، لأنّ شكلي ينتمي لهم وأفكاري تنتمي لغيرهم؛ وكأنهم يقولون لي: «يا أخي، حدّد موقفك: أنت معنا أو معهم».

لذا، قرّرت أن أحلق لحيتي، فذهبت إلى الحلاق، وقام بعمله البطولي بتغيير شكلٍ حافظت عليه أكثر من ثماني عشرة سنة، وتحمّلت بسببه كثيراً من الأذى، وفتح لي إغراءات المشيخة على مصراعيها، ولم يدُر بخلد الحلاق أنّه كان ينهي مرحلة في حياتي، ويفتح لي أبواب مرحلة أخرى.

وباستغنائي عن لحيتي، تجاوزت آخر خطوط اغترابي عن مجتمعي، وألقيت عن كاهلي سنوات غربتي في الجماعات الإسلامية التي حملتها في السنوات الأولى مقتنعاً، وحملتها في السنوات الأخيرة مكرهاً، وخلّصت عقلي من صدأ الانقياد وقيود الاتباع، ومنحته جناحين ليطير في آفاق مفتوحة، وعوالم ممتدّة، لأسترجع ما فاتني من هذه الحياة.

خاتمة

خرجت من تجربتي مع الجماعات الإسلامية برغبة أكيدة في أن أطلق العنان لفكري وعقلي وروحي، فلا يحدّهم حدّ. فعقلي الذي وهبني الله إياه وفضّلني به على سائر المخلوقات لا يمكن أن يقبل الأوهام ولا أن يصدّق الخرافات، ولا أن يرضى بأن تُفرض عليه القيود، وتضرب في وجهه السدود.

وخرجت من هذه التجربة برغبة عارمة في أن أتعرّف على المجتمع الذي أعيش فيه بكلّ إيجابياته وسلبياته، وبحلوه ومرّه، وأن أتعايش معه، بدل أن أقبل أن أعيش في العالم الزائف الذي وضعتني فيه الجماعات الإسلامية، أو الذي تتوهّم أن تخلقه في يوم من الأيام، وتخوض الصراعات مع التيارات والجماعات الأخرى من أجل تحقيقه.

وخرجت من تلك التجربة الطويلة برغبة أصيلة في أن أعرض تجربتي على المنضمّين للجماعات الإسلامية، وأن أقدّم لهم النصح لتغيير الوضع، لكي تتحوّل تلك الجموع

الكبيرة التي تنضم إليها قوّة فاعلة في المجتمع، مؤثرة فيه، وأن تكون أداة للبناء لا معولاً للهدم.

بعد ثماني عشرة سنة تولّد لديّ إيمان تامّ بوجوب أن تفتح الجماعات الإسلامية أبوابها، وأن تخرج من عزلتها، وأن تزيل من عقلها وعقول أعضائها الصورة السلبية للمجتمع، وأن تقبل بالاختلاف وتؤمن بالتنوع، وأن تتقبّل الآراء، وتؤمن بالتجديد، وأن تلغي احتكارها للدين.

لقد آن الأوان لأن تتنفس الجماعات الإسلامية نسيم الحرّية، وتستنشق عبق التجديد، وتستروح عطر الحضارة والتقدّم والرقيّ. وآن الأوان لأن تكفّ هذه الجماعات عن محاولة إرغام الحاضر على ارتداء عباءة الماضي، وأن تؤمن بأنّ لكل زمان عباءته ورداءه وتفصيله.

وبحسب رأيي فإنّ الجماعات الإسلامية إذا أرادت أن تخرج من عزلتها وأن تتحوّل إلى أدوات فاعلة في المجتمع، مساهمة في رقيّه وحضارته، أن تلتزم بالتالي:

أولاً: أن تتصالح مع العصر؛ فالمجتمع إذا أراد أن يبني نهضة فإنّ من الأفضل أن تنطلق نهضته من تراثه وتاريخه وثقافته، ولكن لا بد أن يأخذ منه ما يلزمه لتحقيق نهضته المعاصرة، لكي لا يصبح تاريخه عبئاً عليه. فالذي تقوم

به الجماعات الإسلامية هو محاولة للوقوف في وجه دورة الزمن وضدّ حركة التاريخ، وكلّ ذلك يحدث من منطلق حبّها للرعيل الأول من المسلمين، وشدّة تعلّقها بسيرتهم التي دخل عليها غير قليل من المبالغة والفانتازيا والمثالية.

وتستوجب المصالحة مع العصر أن تتخلّى الجماعات الإسلامية عمّا يعوق مثل هذا التصالح، ويعرقل دخولها في العصر الحديث، وأن لا تتزعج من أيّ تحديث يطرأ عليها ويجعلها أكثر شبهاً بعصرها.

ثانياً: أن تتقبّل التنوّع والاختلاف؛ فالمجتمع منذ نشأ وهو متنوّع ومتعدّد التصوّرات، ومختلف الأهواء والآراء، ولم ينشأ أيّ مجتمع في التاريخ ليس فيه العصاة والخطّاؤون وذوو المعتقدات المتناقضة، وتقع على المجتمع بكافّة أطيافه وفئاته مهمّة التصدّي للمجرمين الذين يعيثون في الأرض فساداً، ولكن لا ينبغي على المجتمع أن يُلزم الناس بتصوّر واحد، وبرؤية واحدة، وأن تتحوّل معاركه التي من المفترض أن تدور مع المفسدين إلى معركة ضدّ العصاة والخطّائين الذين حسابهم عند الله.

وإذا أرادت الجماعات الإسلامية أن تخرج من عزلتها وتندمج مع بقية فئات المجتمع فلا بدّ أن تقبل بالعمل

المشترك مع العصاة والخطائين بصدر رحب، إذا كان ما يجمعهم هو العمل من أجل المجتمع ورقيّه وتقدّمه، لأنّ الأعمال التي تضعها الجماعات الإسلامية في خانة المعاصي والخطايا بالإمكان أن تجعل ثلاثة أرباع المجتمع البحريني في قائمة العصاة والخاطئين.

ثالثاً: أن تساهم في تأسيس الدولة المدنية لا الدولة الدينية؛ وهذا يستلزم طبعاً ألا تأخذ الجماعات الإسلامية دور الربّ في تصنيف الناس إلى مؤمنين وكفّار ومحسنين وعصاة وضالّين. فالدولة المدنية يكون الاحتكام فيها إلى دستور الدولة وإلى القانون، وهما اللذان ينظّمان علاقة الأفراد ببعضهم. أما علاقة أفراد المجتمع بالله، فذلك مردّه إلى الله، وليس لأيّ فرد في المجتمع أن يأخذ هذا الدور من خالق الوجود.

رابعاً: أن تؤمن بالتخصص؛ فالمجتمع لا ينهض بالمتخصصين في الشريعة فقط، بل إنّ المجتمع بحاجة إلى المتخصصين في الفيزياء والكيمياء والأحياء والفلك والطبّ والاقتصاد وإدارة الأعمال والمحاسبة وعلوم الحاسوب. وإذا آمنت الجماعات بالتخصص، فلا بدّ أن يكون المتخصصون هم أدرى بشؤون تخصصهم. وإذا أراد المتخصصون

في الشريعة أن يدلوا بآرائهم في المجالات الأخرى، فللمتخصصين في هذه المجالات أن ينقدوا آراءهم، ولا يعتبروها كتاباً منزلاً.

خامساً: أن تتقبّل نقد الفكر والتراث؛ إذ لا بدّ أن تعي الجماعات الإسلامية أنّ الآراء التي ساقها الفقهاء الأولون واللاحقون والمحدثون هي من التراث ومن الفكر. ومن طبيعة الفكر أن يتطوّر وأن يتعرّض للنقد، وأن تُطرح الأفكار لتجديده، وأن تتقبل الجماعات جميع الآراء التي تتناوله. وأنّ من مصلحة الجماعات الإسلامية أن تلتفت إلى الآراء والاجتهادات التي يسوقها ناقدو الفكر الديني، لأنّ التجديد في آليات التفكير يُسبغ على الفكر الديني الجدّة والحيوية والتوافق مع العصر.

سادساً: أن تؤمن بأنّ ما يخلق التفاضل بين البشر هو العقل والعمل؛ فالجماعات الإسلاميات تقيم التفاضل بين الناس على أساس الإيمان والتقوى التي لا يعلم مقدارهما إلا الله. فميزان التقوى هو ميزان الله سبحانه وتعالى، أما البشر فيجب أن تكون المفاضلة فيما بينهم على أساس رجاحة العقل والإجادة في العمل. فرجاحة العقل بالإمكان قياسها بناء على إبداع المرء وابتكاره وطرحه للأفكار

المفيدة والفعالة والتوصل إلى النظريات العصرية والنتائج المبهرة، والإجادة في العمل يمكن قياسها بالإنجازات التي يحققها المرء في شتى الميادين، والتحلّي بالصبر والتحمّل والانضباط والتفاني؛ وبذلك يصبح ميزان المفاضلة عادلاً ومعاييره واضحة.

أما إذا اعتمدنا على مقياس التقوى والإيمان والقرب من الله، فإنّ هذا معيار يعتمد على التصوّرات والأهواء: فطول اللحية لا يمكن أن يكون دليلاً على التقوى، والبكاء في الصلوات لا يمكن أن يكون معياراً للإيمان، والتردّد على العمرة والحج لا يمكن أن يكون مؤشراً على القرب من الله.

وباعتماد معيار التقوى والإيمان، فإنّ الجماعات الإسلامية تقدّم المتّقي الكسول المرابض في المسجد على المهندس المبتكر الذي لم يركع لله ركعة واحدة. مع أنّ الثاني يمكن أن يكون أكثر إفادة من الأول في مجال بناء المجتمع الحديث.

<u>سابعاً</u>: إعادة النظر في ثوابت الدين من وجهة نظرها؛ كثيراً ما تثور الجماعات الإسلامية حينما تتعرض بعض مسائل الفكر الديني للمناقشة وتدّعي أنه لا يجوز الحديث

حول ثوابت الدين. وإذا ما تأملنا فيما تدّعي هذه الجماعات بأنها ثوابت نجد أنّها ليست من صلب الدين، وإنما هي محض اجتهادات، أو أنها أحكام لا يمكن إخراجها من سياقها التاريخي.

ولكن في المقابل، نجد أنّ ثوابت الدين الأساسية تُنتهك أمام مرأى ومسمع من الجماعات الإسلامية دون أن تحرّك ساكناً؛ بل إنّ بعض هذه الثوابت تنتهك من قبل أعضاء هذه الجماعات.

فالإسلام لديه ثوابت أساسية، وهي الحرّية وإقامة العدل ورفع الظلم وإشاعة المساواة وإلغاء التمييز ومحاربة الفقر وتوفير السعادة لبني البشر؛ وهذه دعوة الأنبياء جميعاً ودعوة محمد صلى الله عليه وسلّم.

هذا الخلط بين ثوابت الإسلام وبين ما تعتقد الجماعات الإسلامية أنه ثوابت، دفع هذه الجماعات إلى تكريس الجهود والأوقات والأموال لخوض معارك طاحنة لهذه التصوّرات على حساب المعارك الأساسية التي يجب أن تخوضها. وبذلك تصبح معركة إيقاف برنامج «الأخ الأكبر»، مثلاً، أهمّ من معركة وضع قانون للأحوال الشخصية، وتصبح

معركة إلغاء دروس الموسيقى بالمدرسة أهمّ من معركة فتح سقف الحرّيات في الإعلام.

أضف إلى ذلك أنّ الجماعات الإسلامية تقوم - من غير أن تعلم - بانتهاك ثوابت الإسلام في بعض الأحيان، فهي تنتهك الحرّية حينما تدعو إلى إقامة الحدّ على المسلم حينما يختار مذهباً غير إسلامي مثلاً، وتنتهك الحرّية أيضاً حينما تقف في وجه الدولة حينما تسمح ببناء الكنائس للمسيحيين والمعابد لليهود والبوذيين، وتنتهك المساواة حينما تميّز بين المرأة المحجبة وغير المحجبة.

ثامناً: أن تُوفّر أدوات الاندماج مع المجتمع، فالجماعات الإسلامية قد وضعت حيطاناً إسمنتية بينها وبين الجماعات الأخرى وفئات المجتمع. وإذا أرادت أن يكون لها تأثيرها في المجتمع يجب أن تتخلّص من جملة أمور، ومنها:

- الخوف من الذوبان في المجتمع: فالجماعات الإسلامية لديها خوف شديد من أن يؤدّي اندماجها في المجتمع إلى تخلّي أعضائها عن ثوابت الجماعة ومعتقداتها. وفي ظلّ الحاجة إلى بناء مجتمع متماسك وقويّ، فإنّ هذا الانصهار مطلوب جدّاً، وأنّ الإصرار على وضع الحواجز مع الفئات الأخرى يؤثّر على تماسك المجتمع.

- التوجّس من الآخر: وهذا الأمر يدفع بالجماعات الإسلامية إلى الوقوف في أمر الاندماج موقفين. الأول: موقف المقاطع للاتصال مع الجماعات الأخرى، وموقف المتردّد الحاذر. وينبع هذا التوجّس من التربية التي تربّى عليها أعضاء الجماعات الإسلامية والتي تخيفهم من خطر وضع يدهم في يد فئات المجتمع المختلفة معهم فكرياً وثقافياً. بحجّة أنّ هذه الفئات هدفها المسّ بمبادئ الإسلام والسعي إلى تقويض أركانه.

- الخلط ما بين الديني والدنيوي: فينبغي على الجماعات الإسلامية أن تضع يدها في يد أي فرد من أفراد المجتمع وأي جماعة من الجماعات فيما يتعلّق بمصلحة الوطن ومستقبله وتقدّمه. وألا تقف في وجه أي قرار أو اتجاه أو اقتراح يصبّ في مصلحة الوطن بسبب آراء اجتهادية، بحيث يبدو وكأن الإسلام يقف في وجه أيّ توجّه تقدّمي وأي مشروع حضاري.

<u>تاسعاً</u>: أن تستفيد من جميع طاقاتها؛ إنّ المجتمعات المتقدّمة لم تتقدّم إلا بعد أن فتحت الآفاق أمام العقول لكي تفكّر وتقدّر وتجرّب وتتساءل. وإنّ المجتمعات التي تحدّد لأفرادها مجال التفكير، وتضع الخطوط الحمراء للتساؤل،

وتزعم أنّ التساؤل تشكيك في أوامر الله ونواهيه، وانتهاك لعلمه، وتطاول على مقدّساته، فلن يكون مصيرها سوى أن تكون تابعة للأوهام والخرافات التي يروّج لها صغار العقول ومحددو التفكير.

وإذا كان الإسلام قد حارب طبقية الفقراء والأغنياء، وطبقة السادة والموالي، فإنّ الإسلام لا يمكن أن يرضى بأن تكون هناك طبقية العلماء وعامة الناس، بحيث يكون التفكير والتمحيص والاستدلال واستخراج الأحكام مقتصراً فقط على العلماء، ومحرَّماً على بقية أفراد المجتمع.

وإذا أرادت الجماعات الإسلامية أن تستفيد من طاقات أفرادها، فعليها أن تشجع كلّ فكرة جديدة، وتفتح المجال أمام كلّ تساؤل، وتؤيد كلّ اتجاه نحو إخضاع ما كان تعتقد أنه مسلمات للتجريب والنقد والملاحظة والتجديد. وهذا الأمر يزيل منها الريبة من كلّ اتجاه نقدي أو فكرة جديدة أو تصوّر عصري لحلّ المشكلات العصرية.

عاشراً: أن تُقدّم خلاص المجتمع على الخلاص الفردي؛ فالجماعات الإسلامية قد شغلت أعضاءها، ووجهت دعوتها للناس للبحث عن خلاصهم الفردي، لضمان الجنة والابتعاد عن النار، ولو كان ذلك على حساب المجتمع وتطوّره وتقدّمه.

فهي تقصر مسؤولية الفرد في حياته أن يستعدّ للآخرة، وأن يضمن تجنّب النواهي وارتكاب المحرّمات. ونتيجة لذلك، فإنّ عضو الجماعة قد يمرّ أثناء ذهابه للمسجد على طرق مكسّرة، ومزابل تنشر الروائح الكريهة والأمراض، دون أن يشعر بمسؤوليته تجاه ما رآه. وقد يذهب العضو إلى درس الفقه مرتدياً الثوب الياباني والغترة الإنجليزية والحذاء الإيطالي والساعة السويسرية والقلم الأمريكي والعطر الفرنسي، دون أن يشعر بالألم من ذلك، لأنّ همّه جمع الحسنات من الدروس والصلاة للحصول على الجواري يوم القيامة.

ثم حلقت لحيتي

شاءت أقدار الكاتب أن يولد في زمان ومكان اتسع فيهما تواجد ونشاط الجماعات السلفية، فكان من الطبيعي أن تتلقفه واحدة من هذه الجماعات منذ كان طفلاً، ليباشر من حينها رحلة طويلة امتدت ثمانية عشر عاماً تنقل خلالها بين ثلاثة تنظيمات سلفية في البحرين، وصار واحداً من أكثر أعضائها إخلاصاً وبروزا حتى أطلقوا عليه، وهو شاب، لقب الشيخ.

ارتدى ما يرتدونه من اللباس وأكل ما يحللونه، وأمّ معهم أماكنهم وذهب معهم في رحلاتهم؛ أقلع عن الموسيقى وعن قراءة ما يرفضونه من الأدب والشعر؛ سمع وردد معهم الكثير من الخرافات والأوهام؛ ونأى بنفسه عن مجتمعه لتصوره أن جميع أفراده، من غير جماعته، على ضلال.

وفي لحظة، انتبه إلى خطأ محاولة إرغام الحاضر على ارتداء عباءة الماضي، وإلى ضرورة الإيمان بالاختلاف والتنوع وقبول الآخر والحاجة إلى مشاركته شؤون الحياة وتفاصيلها. واقتنع أنه لا يحق لأحد ادعاء احتكار الدين، فقرر الانسحاب مما هو فيه والعودة إلى رحاب المجتمع بتنوعه وغناه، فباشر بحلق لحيته واستبدال زيه... وكتب تجربته هذه في هذا الكتاب.

من إصدارات رابطة العقلانيين العرب